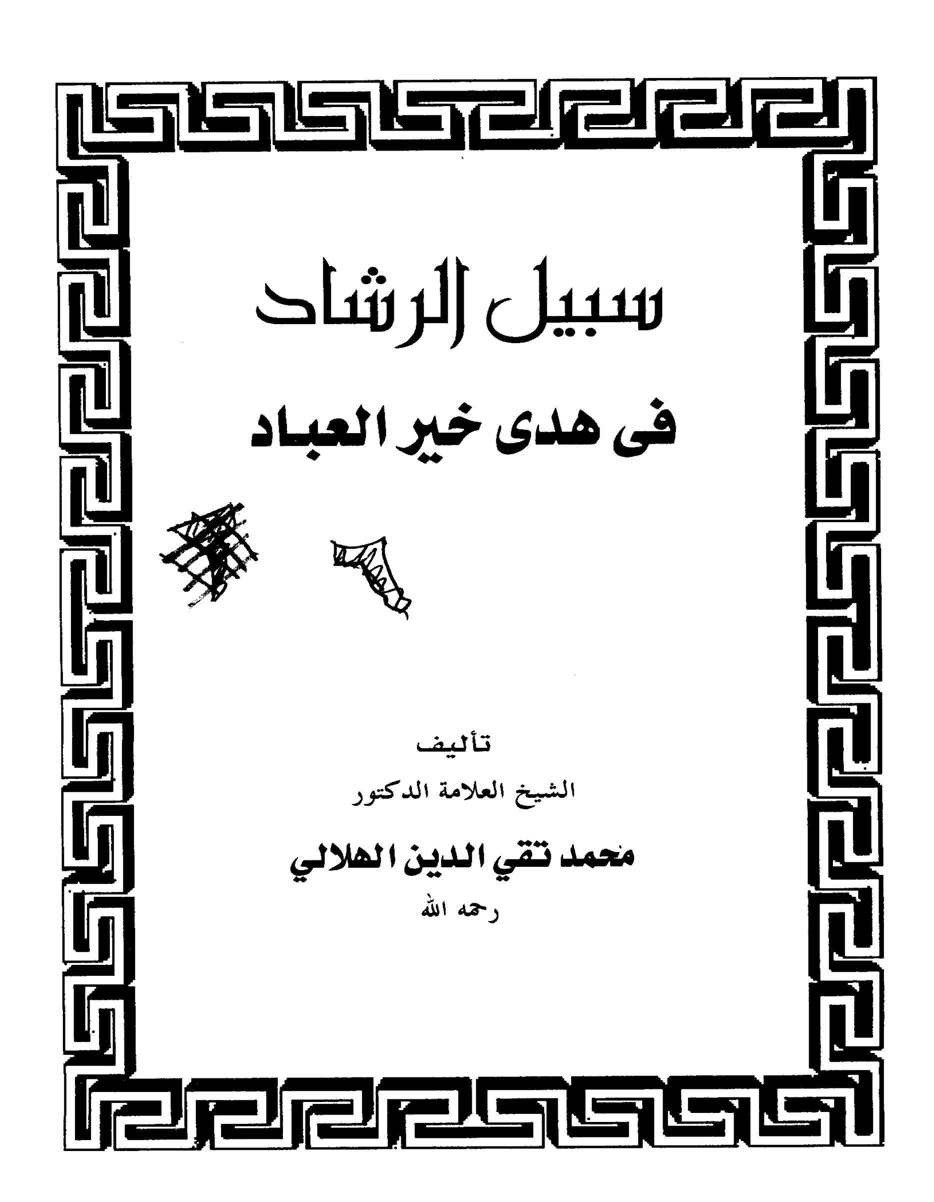


سبيل الرشاد

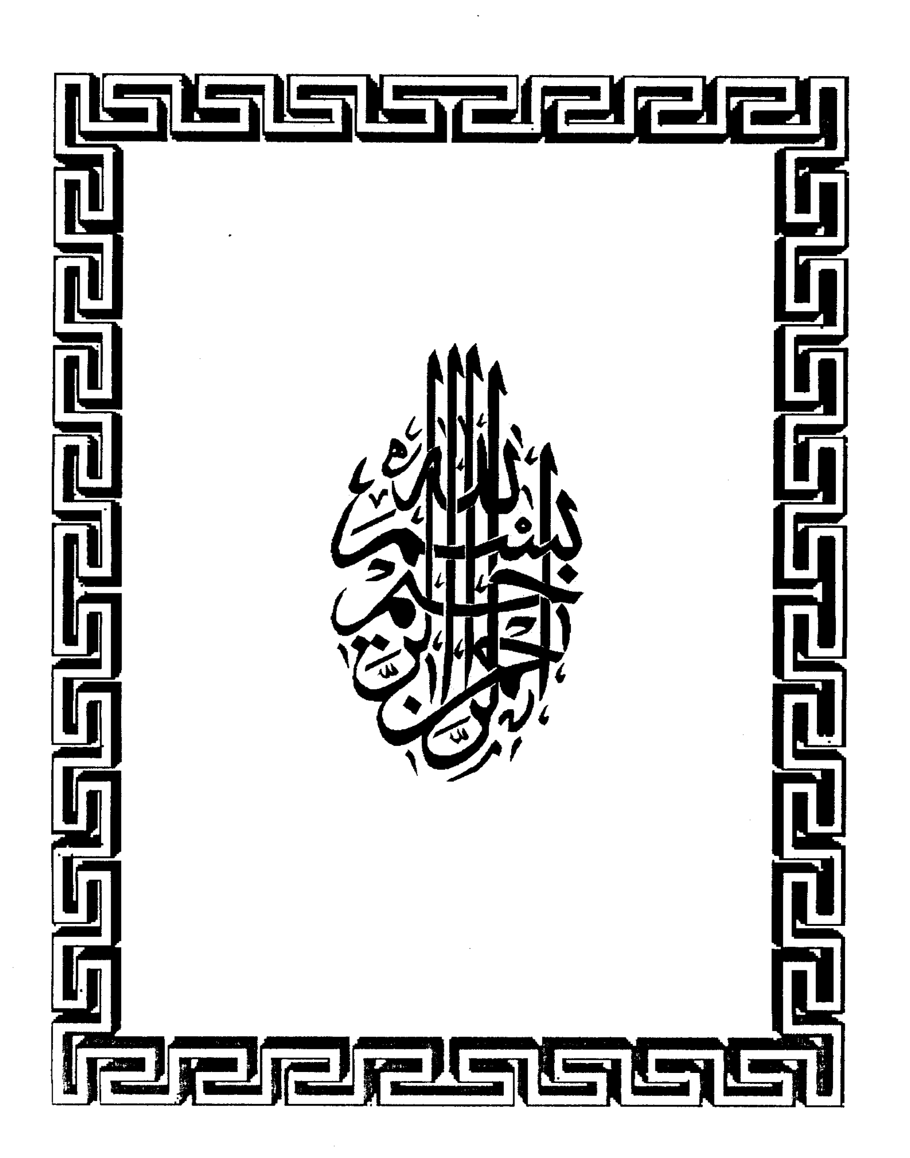
فى هدى خير العباد

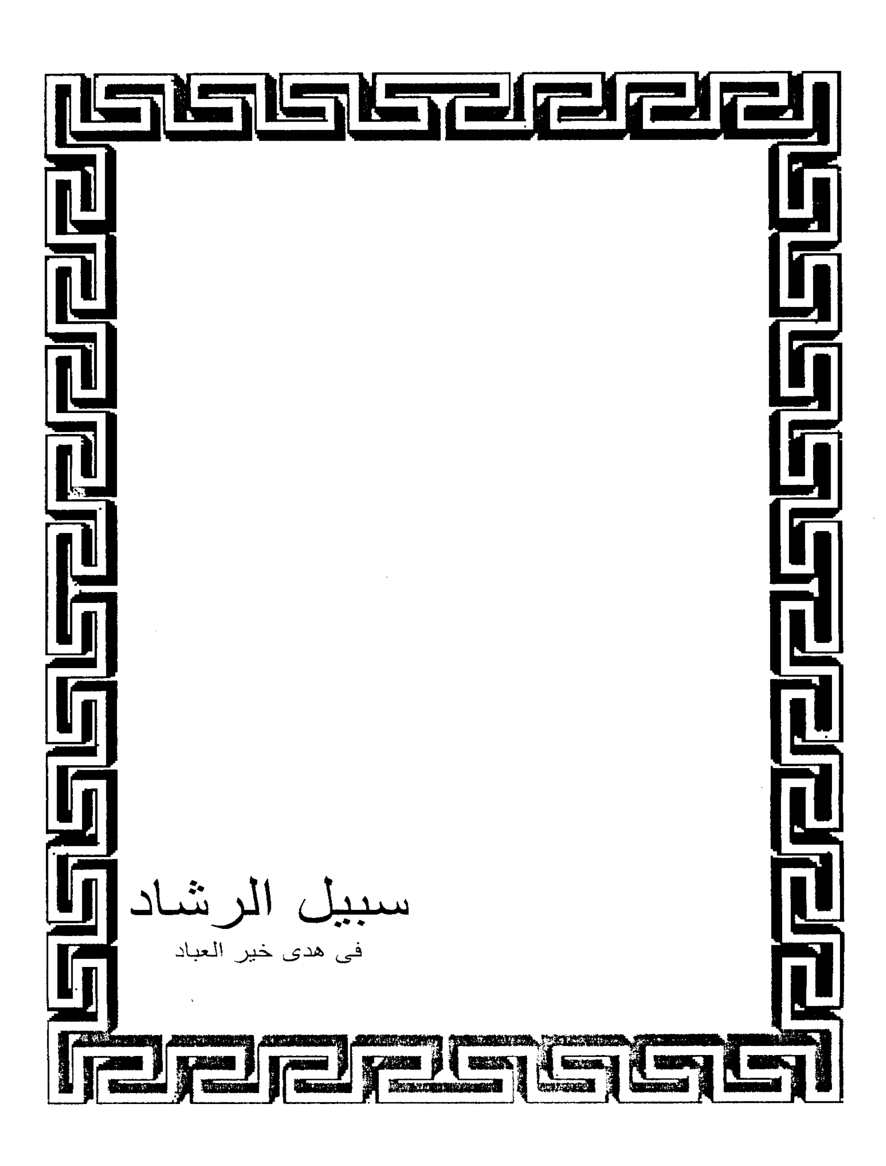
تأليف

الشيخ العلامة الدكتور

محمد تقي الدين الهلالي

رحمه الله


بسم الله الرحمن الرحيم



سبيل الرشاد

في هدى خير العباد



بسم الله الرحمن الرحيم

نفي التشبيه والتمثيل والتأويل والتعطيل عن صفات الله تعالى

اعلم أن المنتسبين إلى الإسلام على ثلاثة أقسام، قسم نفوا بعض صفات الله تعالى أو كلها، فالمتفلسفون نفوا الصفات كلها إلا الوجود وزعموا أنهم بذلك نزهوا الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته والجهمية ومن سلك طريقهم حكموا عقولهم الفاسدة في صفات الله تعالى فأثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها وزعموا أن ما نفوا منها فيه تشبيه وتمثيل كصفة العلو والاستواء التي تقدم بيانها وصفة الكلام الذي هو عربي أو عبراني أو سرياني أو غير ذلك بحروف وأصوات وتقديم وتأخير. وقد تقدم الكلام فيه مستوفى ورؤية المؤمنين ربهم بأبصارهم يوم القيامة يتجلى لهم ضاحكًا ويتنعمون برؤيته ويخاطبهم ويخاطبونه وقد تقدم ذلك بغاية التحقيق وينفون كذلك نزول الله إلى السماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء ومحبته لعباده المؤمنين ورضاه عنهم وبغضه للكافرين وغضبه عليهم وفرحه بتوبة عبده المؤمن وعجبه وضحكه إلى غير ذلك مما يزعمون أن فيها تشبيهًا وسبب ضلالهم أنهم لم يفهموا من الفوقية والنزول والقرب والمحبة والبغض والرضى والسخط والفرح والضحك إلا ما يتصف به المخلوق من ذلك ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وأهل القرون المفضلة لعلموا أن ذات الله لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه الصفات وهم يعترفون أن لله علمًا وقدرة وإرادة وللمخلوقين علم وقدرة وإرادة، ولكن شتان ما بين علم الله وعلم المخلوق وشتان ما بين قدرة الله وقدرة المخلوق وشتان ما بين إرادة الله وإرادة المخلوق وشتان ما بين حياة الله وحياة المخلوق فكذلك نقول لله كلام وعلو ونزول ومجيء ورضى ومحبة وسخط وغضب لا تشبه صفات المخلوقين فهؤلاء متناقضون، فيما يثبتون وفيما ينفون أو يحرفون فيقولون استوى استولى وجاء ربك جاء أمره ويؤولون الرضى والمحبة والضحك والفرح بالثواب والكراهية والبغض والغضب والسخط بالعقاب وهم محجوجون لأنه يرد عليهم فيما أثبتوه ما أوردوه على غيرهم فيما نفوه والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه.

إرادة الله ومشيئته

١- قال تعالى في سورة الدهر: ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

٢- وقال تعالي في سورة التكوير ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٣- وقال تعالي في آخر سورة يس ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

٤- وقال تعالي في آخر سورة يونس ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

٥- وقال تعالي في سورة البروج ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

٦- وقال تعالي في سورة إبراهيم ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء ﴾.

٧- وقال تعالي في سورة الكهف الآية ٣٥: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا، فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾.

قال (ك) في تفسير الآية الأولي: وقوله تعالي ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ومن يستحق الغواية

فيصرفه عن الهدي، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يهدي من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له أهـ.

وقال (ك) في تفسير الآية الثانية: أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

قال سفيان الثوري عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية: ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وقال (ك) في تفسير الآية الثالثة:

أي إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما ... يقول له كن قوله فيكون

وقال الإمام (حم) بسنده عن أبي ذر قال إن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تعالى يقول: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئًا فإنما أقول له كن فيكون »، وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله وله الخلق والأمر وإليه يرجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام والملكوت هو عالم الأرواح والصحيح الأول وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم، قال (حم) بسنده عن حذيفة قال قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: « سمع الله

لمن حمده » ثم قال: « الحمد لله ذي الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي » اهـ.

وقال (ك): في تفسير الآية الرابعة:

فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له روي ابن عساكر وذكر سنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

وقال (ك) في تفسير الآية الخامسة:

أي أن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم القوى فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ** ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان، والودود قال ابن عباس وغيره هو الحبيب ﴿ **ذُو الْعَرْشِ** ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق، والمجيد فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب عز وجل والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت، هل نظر إليك الطبيب ؟ قال: نعم، قالوا فما قال لك، قال لي إني فعال لما أريد. اهـ.

وقال (ك): في تفسير الآية السادسة:

« في البخاري ومسلم » بسندهما عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾.

وروي الإمام (حم) والأربعة إلا الترمذي:

عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثًا ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بما يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله، اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربي الله، فيقولان له ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام. فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة.

قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي - قال - وإن العبد الكافر إذا كان

في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب.

قال فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾.

فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾.

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري.

فيقولان له ما دينك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري.

فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم. فيقول: هاه هاه لا أدري.

فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة اهـ.

وقال الإمام (حم) بسنده إلى جابر بن عبد الله عن فتاني القبر أن النبي ﷺ قال: « أن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاء ملك شديد الانتهار فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول: إنه رسول الله ﷺ وعبده فيقول له الملك انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة فيراهما كليهما.

فيقول: المؤمن دعوني أبشر أهلي فيقال: له اسكن.

وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أصحابه فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: لا أدري أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة أبدلت مكانه مقعدك من النار، قال جابر فسمعت النبي ﷺ يقول: « يبعث كل عبد في القبر على ما مات عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه » إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اهـ.

قال القاسمي في تفسيره:

﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي: يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء في غير موضعه، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴿ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء** ﴾ أي من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة اهـ.

وقال (ك): في تفسير الآية السابعة:

وقوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ **قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وإرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾ أي كائنة ﴿ **وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا** ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ **وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى** ﴾ وقال: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا** ﴾ أي في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل.

وكان سبب نزولها في العاص بن وائل كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ** ﴾. إلى قوله: ﴿ **طَلَبًا** ﴾.

قال (ك): يقول تعالى مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ** ﴾ الآية وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. كما قال تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ** ﴾ الآية أي كيف تجحدون ربكم ودلالته [1]عليكم ظاهرة جلية كل أحد يعلمها من نفسه فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا لشيء من المخلوقات لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء ولهذا قال المؤمن ﴿ **لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ **وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ثم قال: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ** ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا** ﴾ أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ».

وقوله: ﴿ **فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ** ﴾ أي في الدار الآخرة: ﴿ **وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا** ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى: ﴿ **حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء** ﴾.

قال ابن عباس والضحاك ومالك عن الزهري عذابًا من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زروعها وأشجارها ولهذا قال ﴿ **فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا** ﴾ أي بلقعا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم.

وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئًا.

---

(١) قال محمد تقي الدين قوله ودلالته عليكم فيه نظر والصواب أن يقال ودلالته لكم والله أعلم.

وقوله ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائرًا في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي جار وسائح وقال ههنا ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحًا عليه مقلدة أعنتها صفونا

وقوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وآلهته عن الله عز وجل ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ وقال قتادة يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأمور التي أذهبها عليها ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾.

اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدئ بقوله: ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ومنه من يقف على ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ثم اختلفوا في قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو من الولاية فيكون المعنى هنالك الموالاة لله أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾، وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومنهم من كسر الواو من الولاية أي هنالك الحكم لله ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية كقوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عز وجل كقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ الآية ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير اهـ.

وقال صاحب الكواشف ص٩١: وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ وقوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء ﴾.

في هذه الآيات وما ماثلها إثبات لمشيئة الله التامة وإرادته الكونية القدرية والدينية الشرعية، وقد أجمع العلماء من المسلمين وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة الله وإرادته.

الآية الأولى:

أي وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد، وقلت الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافًا بالعجز وبأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء الله أبقاها وإن شاء أفناها وإن ما تيسر لك من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوتك وقدرتك اهـ.

الآية الثانية:

فيها أولاً أخبار عما وقع بين أتباع الرسول ومن بعدهم من التنازع والتعادي وأن ذلك إنما يكون بمشيئة الله عز وجل ولو شاء الله عدم الاقتتال لم يقتتلوا إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه.

الآية الثالثة:

وهي قوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ الإرادة المذكورة فيها دينية شرعية، أي أبيحت

لكم بهيمة الأنعام أي الإبل والبقر والغنم، ﴿ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا ما يتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال وقوله: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر الوحشية فاستثنى من الإنسي ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد حال الإحرام.

وقيل المراد: أحللنا الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه في الحكم، فله الحكم سبحانه، وهو الحكيم لا حاكم غيره فكل حكم سوى حكمه فهو باطل مردود وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.

وهذا عام شامل فما من قضية إلا ولله فيها حكم، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال ﷺ: « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ».

وقال فيما صح عنه: « ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم ».

وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

ولاشك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنها بالقوانين الوضعية أنه كافر كفرًا ناقلاً عن الملة الإسلامية وكذا من استهزأ بالقرآن أو طلب تناقضه أو ادعى أنه مختلف أو مختلق مقدور على مثله أو إسقاط لحرمته أو استخف به أو جحد شيئًا منه أو كذب به أو بشيء منه أو أثبت شيئًا نفاه القرآن أو نفى ما أثبته القرآن فقد كفر قال تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ الآية.

وقال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾.

ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفًا متفقًا عليه أنه كافر وقال على من كفر بحرف منه فقد كفر به كله، وكذا من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، أو زعم أن هدى غير محمد أفضل من هديه ﷺ أو أحسن، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة، وإنها كافية في الزمان الأول فقط، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ولابد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن، فلاشك أن هذا الاعتقاد إذا صدر من إنسان فإنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتنقصها، ولاشك في كفره وخروجه من الدين الإسلامي بالكلية.

وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الباطن فقط أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أو أن الإنسان حر التدين وفي أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك، أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد، أو استهان بدين الإسلام، أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه أو بمن جاء به وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لأجل حمله فهذه الأمور كلها كفر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾.

وقال ابن القيم:

والله ما خوفي الذنوب فإنها	لعلى سبيل العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من	تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضا بآراء الرجال وخرصها	لا كان ذاك بمنة المنان
فبأي وجه آت ربي غدًا[1] إذا	أعرضت عن ذا الوحي طول زمان
وعزلته عما أريد لأجله	عزلاً حقيقيًا بلا كتمان

(١) قال محمد تقي الدين: هذا البيت مختل الوزن ومعناه واضح.

الآية الرابعة:

يقول تعالى فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي إلى طريق الرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحًا واتساعًا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعًا من النظر الصحيح فيما ألقي إليه فيتأمله، وتظهر له عجائبه، وتتضح له دلائله فتوجه إليه إرادته، ويدعو له قلبه، بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه وباهر البرهان الذي يتملك نفسه.

ولما سئل ﷺ عن هذه الآية قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟

قال: « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت:

وقوله: ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ... إلخ** ﴾ أي: من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقًا أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعي له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الأكثر من الناس وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته للداعي إلى دين الإسلام والتمسك به ثقيلة ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء إذ يشعر بضيق شديد في النفس، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع البقاء، فإن هو قد بقي فيها مات.

وقيل: كأنه من ضيقه وشدته يصعد في السماء، أي يتكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة فيه.

والخلاصة:

أن هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه بقوله فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه: مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته الوصول إليه.

قال شيخ الإسلام:

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام: قاسية، وذات مرض، ومؤمنة، وذلك أنها إما أن تكون

يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافًا وإذعانًا، أولاً تكون يابسة جامدة، فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرتسم فيه العلم لأن ذلك يستدعي محلاً لينًا قابلاً، والثاني لا يخلو إما أن يكون ثابتًا فيه لا يتزلزل عنه لقوته مع لينه أو يكون لينه مع ضعف وانحلال فالثاني هو الذي فيه المرض والأول هو القوي اللين.

والعلم يدخل قلب كل موافق من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالخذلان

إثبات صفة المحبة لله عز وجل

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال (ك): الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

ولهذا قال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾.

أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذه من بركة سفارته اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم ذكر هذه الآية في القسم الثاني في آيات توحيد الاتباع بتفصيل والمراد هنا إثبات صفة المحبة لله عز وجل فإنه أثبتها لنفسه في كتابه،

وأثبتها له رسوله ﷺ وأصحابه كلهم والتابعون والأئمة المجتهدون وأئمة الحديث، فمن نفاها أو تأولها بأن الله يثيبهم فهو مبتدع من الخلوف الذين حذرنا منهم رسول الله ﷺ وأمرنا بجهادهم فقال عليه الصلاة والسلام.

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

وزعمهم أن في إثبات هذه الصفة وأمثالها تشبيهًا لله بخلقه لأن المحبة ميل القلب إلى لقاء المحبوب والتشوق لوصاله، فقلنا لهم هذه محبتكم أنتم ومن جهلكم شبهتم محبة الله بمحبتكم فشبهوا أيضًا علمه بعلمكم وقدرته بقدرتكم وإرادته بإرادتكم وحياته بحياتكم وسمعه وبصره بسمعكم وبصركم وأنفوا عنه الصفات كلها كما فعل أشياخكم الفلاسفة وذلكم لازم لكم.

أما نحن فنثبت لله تعالى كل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ مع نفي تشبيه صفاته تعالى بصفات المخلوقين.

كما أن ذاته لا تشبه ذواتهم فانظروا عقيدة السلف ما أسهلها وما أحسنها فنورها مشرق وعقيدة الخلف بسكون اللام مظلمة منتنة الرائحة فالحمد لله الذي عافانا منها.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال (ك) أي من الذنب وأن تكرر غشيانه: ﴿ **وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتي اهـ.

قال محمد تقي الدين: ثبتت محبة الله تعالى للتوابين وللمتطهرين وتأويل الحب هنا بالثواب تكذيب. وادعاء المجاز باطل لأنه لا توجد قرينة تدل عليه وقد تكرر وروده في النصوص فتوبوا إلى ربكم يا أيها النفاة المعطلون وآمنوا بالله مثلما آمن به رسوله والصحابة والتابعون بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل وقال تعالى في سورة المائدة في صفة المؤمنين الصادقين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال (ك): يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ أي بممتنع ولا صعب، وقال تعالى ههنا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ** ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل، ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ هذه صفة المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه متعززًا على خصمه وعدوه كما قال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ** ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه، وقوله عز وجل: ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ** ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد ذكرت تفسير هذه الآية مطولاً في القسم الأول من سبيل الرشاد والمراد هنا إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله كما قال تعالى في سورة الصف:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ اهـ.

قال صاحب الكواشف ص٩٩: ما نصه.

صفة المودة والمحبة

وقوله: ﴿ **وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾. ﴿ **وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾. ﴿ **فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾. ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾. ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ**

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾. ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾.

في هذه الآيات الكريمات دليل على إثبات صفة المحبة لله وهي من الصفات الفعلية، وقد دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، محبة تليق بجلاله كما يقال ذلك في سائر الصفات، والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبوت من قولهم: أحب البعير فهو محب إذا برك، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ثابت القلب على حبه مقيم عليه ولا يروم عنه انتقالاً ولا يبغي عنه تحولاً ولا زوالاً، وقد اتخذ له في سويداء قلبه وطنًا وجعله له سكنًا والحب بالضم والكسر والضم أولى.

ومن السنة ما يدل على صفة المحبة ما ورد عن عبد الله بن مسعود يرفعه قال: « ثلاثة يحبهم الله رجل قام من الليل يتلوا كتاب الله،.. » الحديث رواه (ت) وعن أبي ذر قال. قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابته بينه وبينهم، فتخلف رجل من أعيانهم فأعطاه سرًا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه » الحديث رواه (ت) و (ن).

قال الشيخ:

فأهل السنة والجماعة يقولون أن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة ويقولون: أن المحبة والرضى أخص من الإرادة، فيقولون أن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات اهـ.

الآية الأولى:

فسره ﷺ بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وأما الإحسان إلى المخلوق. فهو إما أن يكون بإيصال النفع الديني والدنيوي ويدخل فيه إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والخيرات والعبادات وأما أن يكون بدفع الضرر عنهم حسب الاستطاعة أو بهما جميعًا اهـ.

الآية الثانية:

القسط العدل في المعاملات والأحكام مع كل أحد، قريب أو بعيد، عدو أو صديق والعدل في حقوق الله أن تصرف نعمه في طاعته ولا يستعان بها ولا بشيء منها على معصية الله تعالى، أي أعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون، أن الله يحب العادلين في أهليهم وما ولوا، وفي جميع أعمالهم، وفي حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى أنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم.

عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا ».

قال الشيخ:

العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقًا لا يباح قط بحال، والعدل محبوب باتفاق أهل الأرض، مركوز حبه في القلوب وتحمده، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه، والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلاً بل حكم الله أحسن الأحكام، والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج اهـ.

وقال:

أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق[١] وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة اهـ.

(١) هكذا في الأصل وفي معناه خفاء.

وقال: ومعلوم أن الناس تحت أمر الله ورسوله فليس لأحد أن يضر نفسه وماله ضررًا نهاه الله عنه ومن دفع ذلك الضرر عنه بما هو أخف منه فقد أحسن إلى نفسه وفي فطر الناس جميعهم أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو معتد وما عده المسلمون ظلمًا فهو ظلم اهـ.

الآية الثالثة:

التواب كثير التوبة الذي كلما أذنب تاب ورجع عن المعصية والطهارة: النظافة والنزاهة عن الأقذار، والطهارة تنقسم إلى قسمين: الأولى: حسية، وتكون عن الأحداث والأنجاس، والثانية: معنوية، وتكون عن الذنوب والآثام والمعاصي.

والمعنى:

أن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على شيء من أفعالهم ويحب كل من نزه نفسه عن الأقذار وابتعد عن ارتكاب المحرمات، وللتوبة ثلاثة شروط، إذا كانت لا تتعلق بحق آدمي: الأول: الإقلاع عن المعصية والثاني: الندم على فعلها، والثالث العزم على أن لا يعود إلى المعصية أبدًا، فإن فقد أحد هذه الشروط لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة، الثلاثة المذكورة، والرابع: أن يبرأ من حق صاحبه فإن كانت مالاً أو نحوه رده، وإن كانت حد قذف أو نحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلاً حليمًا يغلب على الظن أنه إذا جاء معتذرًا متنصلاً من ذنبه تائبًا نادمًا عفًا عنه وسامحه، وإلا فيستغفر له لحديث: « أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول: اللهم اغفر لنا وله ». وقد حث الله على التوبة وبين ما للتائبين في آيات القرآن الكريم، وقد نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلي في ثلاثة أبيات وسماها شروطًا، فقال:

شروط توبتهم إن شئت عدتها ... ثلاثة عرفت فاحفظ على مهل

أقلاعه ندم، وعزمه أبدًا ... أن لا يعود لما منه جرى وقل

إن كان توبته من ظلم صاحبه ... لابد من رد حقه على عجل

الآية الرابعة:

الاستقامة ضد الإعوجاج، ومعناها لغة الاستواء في جهة الانتصاب، وأما اصطلاحًا فهي اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم.

وقوله: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ﴾ أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم إلخ، وقد فعل ﷺ ذلك والمسلمون، واستمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقاتلوهم في الحرب أيضًا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ التقوى: التحرز بطاعة الله عن معصية الله فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة أن الجبال من الحصى اهـ

الآية الخامسة:

الحب والمحبة، ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه قال وقد أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب، قال الأزهري: محبة العبد لله ولرسوله طاعته لأمرهما واتباعه لهما، ومحبة الله للعبد محبة تليق بجلاله وعظمته أثرها رحمته وإحسانه وإعطاؤه، والمعنى، قل يا محمد: إن كنتم تحبون الله حقيقة فاتبعوني فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأمره ونهيه، والحب الصادق حريص على معرفة المحبوب ومعرفة امره ونهيه، ليتقرب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه، فإن اتبعتموني يحببكم الله.. إلخ.. وهذه حجة على من يدعي محبة الله في كل زمان ومكان وأعماله تكذب ما يقول، إذ كيف يجتمع حب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه فهو كما قال الوراق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ما يؤخذ من الآية:

(١) إثبات الإلوهية. (٢) إثبات صفة الكلام. (٣) إثبات صفة المحبة لله. (٤) الرد على الجهمية والمعتزلة. (٥) الحث على محبة الله بالسعي في أسبابها. (٦) الرد على من قال أن القرآن كلام جبريل أو كلام محمد ﷺ. (٧) إثبات صفة المغفرة، ومن أسمائه تعالى الغفور والغفار قال تعالى:: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ** ﴾ الآية: قال بن القيم رحمه الله.

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان

لاقاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران

فهو سبحانه الذي أظهر الجميل وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ وفي الحديث: « أن الله يقول يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة ».

ومما يؤخذ من الآية أيضًا: (٨) الحث على إتباع الرسول ﷺ. (٩) أن هذه الآية هي الميزان الذي يعرف به من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة فعلامة محبة الله اتباع الرسول ﷺ.

قال الشيخ رحمه الله: وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيدًا لله وإخلاصًا له في الدين وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول اهـ.

قال محمد تقي الدين: لم أنقل تفسيره لآية المائدة لأنه تقدم.

ثم قال: تنبيه.

أنكرت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة الله وقالوا: المحبة لا تكون إلا بين متناسبين وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات الله الثابتة له.

قال الإمام أحمد: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين والمناسبة لفظ مجمل، فإنه قد يراد بها التوالد والقرابة، فيقال هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة

مستندة للولادة والآدمية، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ويراد بها المماثلة، فيقال: هذا يناسب هذا أي يماثله والله سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أو يراد بها الموافقة في معنى من المعاني وضدها المخالفة، والمناسبة، بهذا الاعتبار ثابتة فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه وفيما يحبه فيحبونه وفيما نهى عنه فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه والله وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة محسن يحب المحسنين مقسط يحب المقسطين إلى غير ذلك من المعاني، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال أولا يحب صفات الكمال وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا اهـ.

من مجموعة الرسائل لشيخ الإسلام

الآية الثامنة:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ فالغفور من أبنية المبالغة أي كثير المغفرة وأصل الغفر الستر، ومنه المغفر فهو سبحانه وتعالى يغفر لمن تاب إليه أي يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه.

قال ابن رجب: المغفرة محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى لا كما ظنه بعضهم الستر فالعمامة لا تسمى مغفرًا مع سترها فلابد في لفظ المغفر من الوقاية اهـ.

وقوله: « الودود » من الود وهو خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة قال الجوهري وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته والود المودة والودود المحب والودود من صفاته تعالى أصله من المودة واختلف فيه على قولين: فقيل هو ودود بمعنى واد كضروب بمعنى ضارب وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله فاعل كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر وصبور بمعنى صابر وقيل

بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب وبذلك فسره (خ) في صحيحه فقال الودود الحبيب والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ وبالرحيم في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ وفيه سر لطيف وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فالتائب حبيب الله فالود أصفى الحب وألطفه اهـ (من كلام ابن القيم).

وقال رحمه الله:

وهو الودود يحبهم ويحبه	أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو	بهم وجازاهم بحب ثان
هذا هو الإحسان حقًا لامعًا	وضة ولا لتوقع الشكران

والخلاصة:

أنه سبحانه المحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين المحسنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى، وهذا هو الواجب ويتعين أن تكون المحاب تبعًا لها، لأن محبة الله هي روح الأعمال وجميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه جازاه بحب آخر.

قال ابن القيم:

وحياة قلب المرء في شيئين من	يرزقهما يحيى مدى الأزمان
في هذه الدنيا وفي الأخرى يكو	ن الحي ذا الرضوان والإحسان
ذكر الإله وحبه من غير أشـ	ـراك به وهما فممتنعان
من صاحب التعطيل حقًا كامتنا	ع الطائر المقصوص من طيران
أيحبه من كان ينكر وصفه	وعلوه وكلامه بقران
لا والذي حقا على العرش استوى	متكلما بالوحي والفرقان

ثم قال صاحب الكواشف:

أقسام المحبة:

أقسام المحبة خمسة: الأول محبة الله، ولا تكفي وحدها للنجاة من النار والفوز بالجنة، فإن المشركين يحبون الله، والثاني: محبة ما يحب الله وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة، الثالث: محبة في الله ولله: وهي فرض، كمحبة أوليائه وبغض أعدائه وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه ويحب أولياءه.

قال الشيخ رحمه الله على قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية، فأخبر أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينفي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآيتين.

فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: « لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء » فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب.

ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ فإنه أخبر في تلك الآية أن متوليهم لا يكون مؤمنًا وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم فالقرآن يصدق بعضه بعضًا اهـ.

قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبا له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير وتوحيد المحـ	ـبة مع خضوع القلب والأركان
والحب نفس وفاقه فيما يحـ	ـب وبغض ما لا يرتضى بجنان

الرابع:

المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال فهذه لا تصلح إلا لله، ومتى أحب العبد بها غير الله أشرك الشرك الأكبر.

الخامس:

المحبة الطبعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة المال والولد ونحو ذلك، فهذه لا تذم إلا إذا شغلت وألهت عن طاعة الله.

قال الشيخ:

حب الإنسان للأمور الدنيوية لا يلام العبد عليه ولا يعاقب إلا إذا دعا إلى معصية الله أو تضمن ترك واجب. وجامع المال إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع للدنيا والآخرة اهـ.

إثبات صفة الرحمة لله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ في ابتداء كل سورة إلا سورة التوبة.

وقال تعالى في آخر سورة البقرة معلمًا عباده كيف يدعونه: ﴿ **وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ** ﴾.

وقال تعالى في سورة البقرة أيضًا: ﴿ **وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ الآية: ١٦٣.

وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ **الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**

وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية: ١٥٦.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآية: ٢١٨.

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية: ٢٣.

إلى غير ذلك من الآيات التي هي برهان قاطع على أن الله تعالى موصوف بالرحمة اهـ.

معنى صفتي الرحمن الرحيم: قال ابن الأثير في النهاية ج٢ ص٢١٠: في أسماء الله تعالى ﴿ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة، مثل ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمن خاص لله لا يسمى به غيره، ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال رحمن.

وفيه: « ثلاث ينتفع بهن العبد في الدنيا، ويدرك بهن في الآخرة ما هو أعظم من ذلك: الرحم، والحياء، وعي اللسان » الرحم بالضم: الرحمة، يقال رحم رحما: ويريد بالنقصان ما يناله المرء بقسوة القلب، ووقاحة الوجه، وبسطة اللسان التي هي إضداد تلك الخصال من الزيادة في الدنيا.

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ ﴾.

قال (ك): أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة وارحمنا: أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر.

ولهذا قالوا إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره اهـ.

وقال القاسمي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الآية.

يخبر تعالى بخطابه كافة الناس عن تفرده بإلاهيته، وأنه لا شريك وله ولا عديل.

قال الراغب:

يجوز أن يكون قوله: ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ خطابًا عامًا، والمعنى، الذي تعبدونه إله واحد، تنبيهًا أنكم لستم كالكفار الذين يعبدون أصنامًا آلهة والشيطان والهوى وغير ذلك.

إن قيل ما فائدة الجمع بين ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وبين ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وأحدهما يبني على الآخر ؟

قيل: لما بين بقوله ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها – وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لا يعبد ولا يستحق العبادة أكده بقوله ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحق لهذا المعنى أن يكون مؤكدًا وتكرر عليه الألفاظ، إذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه اهـ.

وقال الرازي:

إنما خص سبحانه وتعالى هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلهية والفردانية يفيد القهر والعلو، فعقبهما، بذكر هذه المبالغة الرحمة ترويحًا للقلوب عن هيبة الإلهية وعزة الفردانية وإشعارًا بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان اهـ.

قال محمد تقي الدين: تقدم معنى الرحمن الرحيم.

وقال صاحب لسان العرب:

الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله وقد رحمته وترحمت عليه: وتراحم القوم رحم بعضهم بعضًا، والرحمة: المغفرة، وقوله تعالى في وصف القرآن: هدى ورحمة لقوم يؤمنون، أي فصلناه هاديًا وذا رحمة، وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ ﴾: أي هو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم، رحمه رحما ورحما ورحمة ورحمة ؛ حكيَ الأخيرة سيبويه ومرحمة.

وقال الله عز وجل: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا برحمة الضعيف والتعطف عليه، وترحمت عليه أي قلت رحمة الله عليه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ فإنما ذكر على النسب وكأنه اكتفى بذكر الرحمة عن الهاء، وقيل: إنما ذلك لأنه تأنيث غير حقيقي، والاسم الرحمن. قال الأزهري التاء في قوله إن رحمة أصلها هاء وإن كتبت تاء، الأزهري: قال عكرمة في قوله ابتغاء رحمة من ربك ترجوها: أي رزق، ولئن أذقناه رحمة ثم نزعناها منه، أي رزقًا وما أرسلناك إلا رحمة: أي عطفًا، وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء، أي حيا وخصبا بعد مجاعة، وأراد بالناس الكافرين

والرحموت: من الرحمة، وفي المثل: رهبوت خير من رحموت، أي لان ترهب خير من أن ترحم، لم يستعمل على هذه الصيغة إلا مزدوجًا.

وترحم عليه: دعا له بالرحمة، واسترحمه: سأله الرحمة، ورجل مرحوم ومرحم شدد للمبالغة والتوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر، وهذا تغال بالعرض، وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء** ﴾، معناه يختص بنبوته من يشاء ممن أخبر عز وجل أنه مصطفى مختار.

والله الرحمن الرحيم: بنيت الصفة الأولى على فعلان لأن معناه الكثرة، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين، فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل، والرحيم قد يكون لغيره.

قال الفارسي: إنما قيل بسم الله الرحمن الرحيم فجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ كما قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ثم قال خلق الإنسان من علق فخص بعد أن عم اهـ.

قال القاسمي في تفسيره عند هذه الآية: وقوله: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة، كما قال تعالى: ﴿ **يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ** ﴾ ولعلها هي المراد هنا، بدليل مقابلتها بـ ﴿ **الْعَذَابُ** ﴾ قيل كما قابل الآية التي ذكرها بقوله: ﴿ **وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ والله أعلم ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا** ﴾ أي هذه الرحمة ﴿ **لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ أي الكفر والشرك والفواحش ﴿ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ أي يعطون زكاة أموالهم ﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي بكتابنا ورسولنا يصدقون اهـ.

وقال القاسمي أيضًا من تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ** ﴾ الآية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ بحرمة الشهر في نفسه وجواز قتال المخرجين أهل المسجد الحرام منه ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ** ﴾ تركوا مكة وعشائرها إذ خرجوا من المسجد الحرام ﴿ **وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾. ولو في الشهر الحرام للدفع عن أنفسهم ﴿ **أُوْلَـئِكَ** ﴾ وإن باشروا القتال في الشهر الحرام ﴿ **يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ** ﴾ أي جنته على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر،

وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لهتكهم حرمة الشهر ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بما تجاوز عن قتالهم، مع قيام دليل الحرمة فلم يعاقبهم اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ الآية.

قال (ك): أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي موجع شديد في الدارين اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الرحمة صفة وصف الله بها نفسه ولفظها مشترك له في كل مقام معنى والمعنى الذي وصف الله به نفسه خاص بالله تعالى لا يشترك معه أحد فيه والذين نفوها عن الله تعالى رأوها مفسرة بالرقة والتعطف في حق المخلوق فشبهوا صفة الخالق بصفة المخلوق ونفوها عن الله تعالى وأولوها بالمغفرة والإثابة وإنما أتوا من قبل جهلهم وتشبيههم ولو أثبتوها مع التنزيه عن مشابهة المخلوقين كما أثبتوا العلم والقدرة لكان خيرًا لهم.

وقال صاحب الكواشف ص١١٢: صفة الرحمة والمغفرة وقوله: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾. ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾. ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾. ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ في هذه الآيات إثبات صفة الرحمة والمغفرة.

الآية الأولى:

الباء في بسم الله للاستعانة، وهي متعلقة بمحذوف، والتقدير ابتدئ، والاسم مشتق من السمو العلو أو من السمة، وهي العلامة، ولفظ الجلالة مشتق من أله، ومعنى كونه مشتقًا أنه دال على صفة هي ألوهية كسائر الأسماء الحسنى وقوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال ابن عباس الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أوسع رحمة اهـ.

وهما من أبنية المبالغة، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، والرحمن خاص بالله سبحانه لا يسمى به غيره ولا يوصف، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره، فيقال رجل رحيم، وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن الرحيم الأنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة.

قال ابن القيم: وأسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هي صفة جرى تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجيء قط تابعًا بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم، والقدير والسميع والبصير، ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى، وهو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال على أن الرحمن صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾. ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وأن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها.

وقال ابن القيم:

تضمنت بسم الله الرحمن الرحيم إثبات النبوات من جهات عديدة:

الأولى: من اسم الله هو المألوه المعبود ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله.

الثانية: من اسمه الرحمن فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة، فمن أعطي هذا الاسم حقه عرف أنه متضمن إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاؤه الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائه ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله أن اسم الجلالة « الله » مأخوذ من أله بزيادة الألف واللام وحذف الهمزة وهو فعال بمعنى مفعول أي مألوه لأن أله يأله بمعنى عبد يعبد وهذا مذهب سيبويه وعندي فيه نظر لأن هذا هو اسم الباري سبحانه في جميع اللغات السامية كالعبرانية فهو فيها الوهيم والسريانية فهو فيها ألاها والأشورية فهو فيها ألاهو فهو مرتجل والله أعلم اهـ.

الآية الثانية:

أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فما من مسلم ولا كافر إلا وهو يتقلب في نعمته اهـ.

الآية الثالثة:

يخبر تعالى أنه بالمؤمنين رحيم.

أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر والبدع وأتباعهم من الطغاة وأما رحمته في الآخرة التي قال فيها: ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ الآية، فإنه أمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾.

الآية الرابعة:

يخبر تعالى أن رحمته عمت كل شيء في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر والمؤمن والكافر فلا يخلو مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمته وغمره فضله وإحسانه ولكن الرحمة الخالصة ليست لكل أحد ولهذا قال فيها: ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ أي الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة.

الآية الخامسة:

في الآية احتجاج أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقررًا لهم وملزمًا لهم بالتوحيد ؟ فإن أجابوك وإلا فقل إن الله هو الخالق لهذا الكون المالك المتصرف فيه وقوله « كتب » إلخ هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عن الإقبال عليه وإخبار منه بأنه رحيم بالعباد قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ولكنه كتب على نفسه الرحمة ووعد بها فضلاً منه وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد.

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية فالكتابة الشرعية الأمرية كقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾، ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ** ﴾.

والكونية القدرية كقوله: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ وقوله ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾. ﴿ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾.

والكتابة في قوله: ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ** ﴾ كونية قدرية فقد كتب على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحسانًا من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وإذا كان معقولاً من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم، ويأمرها وينهاها، مع كونه تحت أمر غيره ونهيه، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه، وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له إرادة أن لا يفعله فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه، فإن محبته ذلك منهم تستلزم وقوعه، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه، فرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه، فهذا نوع وذاك نوع، فتدبر هذا الموضع.

وقال: واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف:

فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل، وأن يكون العبد فاعلاً أو مختارًا.

الطائفة الثانية:

بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين.

تعطيل صفاته، وجحد نعوت كماله، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه فشبهوا في أفعاله وعطلوا في صفات كماله، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدًا وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلاً، وقالوا نحن أهل العدل والتوحيد فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها، وتوحيدهم الحاد في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه، فكان توحيدهم في الحقيقة تعليلاً وعدلهم شركًا، والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات، وهدى الله الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فلم يقيسوه بخلقه ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ولم يوجبوا عليه شيئًا ولم يحرموا عليه شيئًا، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء فإن العباد لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه.

وهذا بين بحمد الله عند أهل العلم والإيمان مستقر في فطرهم ثابت في قلوبهم يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل هم إلى الله ورسوله متحيزون وإلى محض سنته منتسبون يدينون دين الحق أين توجهت ركائبه ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه اهـ « من كلام ابن القيم » ثم نقل عن شيخ الإسلام كلامًا حسنًا أثبته هنا.

زعم الجهمية والمعتزلة أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم، وهذا الزعم باطل من وجوه، أما أولاً فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة، قال تعالى: ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن فقال: ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ وندبهم إلى الرحمة، وقال النبي ﷺ: « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » وقال: « من لا يرحم لا يرحم » وقال: « الراحمون يرحمهم الرحمن ». وقال: « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ومحال أن يقول لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة الناس ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا.

وأيضًا فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله تعالى مستلزمة لذلك كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه.

وأيضًا فنحن نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين، أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة والآخر قد استوى عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة كان الأول أكمل اهـ.

تفسير آية يوسف:

قال (ك) وقوله تعالى: ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا** ﴾ قرأ بعضهم حافظًا: ﴿ **وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي وسيرحم كبرى وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده على ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين اهـ.

صفة الرضا والغضب والكراهية والسخط

قال الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه العزيز: ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** ﴾ فمن ذلك قوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿ **قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ الآية: ١١٩.

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الآية: ١٠٠.

وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الآية: ١٨.

وقال تعالى في سورة المجادلة في آخرها: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ تقدم تفسير هذه الآية في القسم الأول من سبيل الرشاد اهـ.

قال صاحب لسان العرب: الرضا: مقصور وضد السخط، وفي حديث الدعاء اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وفي رواية بدأ بالمعافاة ثم بالرضا، قال ابن الأثير: إنما ابتدأ بالمعافاة من العقوبة لأنها من صفات الأفعال كالإماتة والإحياء والرضا والسخط، من صفات القلب وصفات الأفعال أدنى رتبة من صفات الذات فبدأ بالأدنى مترقيًا إلى الأعلى، ثم لما ازداد يقينا وارتقى ترك الصفات وقصر نظره على الذات فقال: أعوذ بك منك ثم لما ازداد قربًا استحيا معه من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فقال: لا أحصي ثناء عليك، ثم علم أن ذلك قصور فقال أنت كما أثنيت على نفسك.

فصل

قال محمد تقي الدين: لقد أحسن صاحب اللسان حين أخبر أن الرضا صفة ذات الله تعالى والجهمية وغلاة المتصوفة ينفون صفتي الرضا والسخط عن الله تعالى ويؤولون الرضا بالثواب والسخط بالعقاب وهم كاذبون لأن الله وصف نفسه بالرضا كما تقدم ووصف نفسه بالسخط في قوله في سورة المائدة: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ، كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ

لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ، تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ الآية: ٧٨.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إثبات صفة السخط لله تعالى على بعض عباده ولا يجوز تأويله بالعقاب لأنه عطف عليه قوله وفي العذاب هم خالدون ولا يجوز في الكلام الفصيح أن يقال عاقبهم وعاقبهم أو عذبهم وعذبهم لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة والنادر لا حكم له.

قال تعالى في سورة القتال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ الآية: ٢٨.

ولا يجوز تأويله بأنهم أوجبوا عليه عقابهم والله تعالى يعبر عن الثواب إذا أراده بحروفه.

قال تعالى في المؤمنين من أهل الكتاب الذين كانوا نصارى فسمعوا ما أنزل إلى الرسول ففاضت أعينهم من الدمع: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾. ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ويعبر عن العذاب بحروفه إذا أراده كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الآية: ١١٠ ومثل ذلك كثير في القرآن.

وأثبت الله سبحانه صفة الغضب لنفسه فمن ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ الآية: ٩٣.

ولا يجوز أن يؤول غضب هنا بمعنى عذب لأنه مخل بالفصاحة والبلاغة، قال صاحب الكواشف ص١٢٢.

قال الشيخ رحمه الله (يعني شيخ الإسلام) وقد ثبت بالسمع اتصاف الباري بالأفعال الاختيارية به كالاستواء على العرش والقبض والبسط والنزول والخلق والرزق المتعلقة بنفسه والمتعدية إلى الخلق، والفعل المتعدي واللازم لابد أن يقوم بالفاعل ويمتنع عقلاً وشرعًا أن يقوم بالفاعل ويمتنع عقلاً وشرعًا أن يقوم بغيره في الحالين وهذه الأفعال

الاختيارية تبع لقدرته ومشيئته فما شاء قاله وتكلم به، وما شاء فعله في الحال والماضي والمستقبل، هذا أصل متفق عليه بين السلف وعليه دل الكتاب والسنة.

قال ابن القيم في النونية:

أو ما علمت بأنه سبحانه	**حقا يكلم حزبه بجنان**
فيقول جل جلاله هل أنتم	**راضون قالوا نحن ذو[1] رضوان**
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا	**ما لم ينله قط من إنسان**
هل ثم شيء غير ذا فيكون أفضـ	**ـل منه نسأله من المنان**
فيقول أفضل منه رضواني فلا	**يغشاكم سخط من الرحمن**

وقال صاحب الكواشف نقلاً عن ابن القيم ص١٢٣.

الرضا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله: فالرضا بالله فرض: والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم، وأوجبه بعضهم، وأما الرضا بكل مقضي. فلا يجب، بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضا به وهو الديني، قال تعالى: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ الآية، ومقضي كوني قدري، فإن كان فقرًا أو مرضًا ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب، وأوجبه بعضهم: وإن كان كفرًا أو معصية حرم الرضا به، فإن الرضا به مخالفة لربه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه قال تعالى: ﴿ **وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ الآية، وأما القضاء الذي هو صفة الله وفعله فالرضا به واجب اهـ.

وقال أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني: في عقيدته ما نصه:

وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى

---

(١) قال المؤلف: صوابه ذو رضوان لكنه يختل الوزن.

وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه[1] عليه بتأويل منكر ويجرونه على الظاهر ويكلون علمه إلى الله تعالى.

وفي شرح العقيدة الطحاوية ٤٦٢ ما نصه:

ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات.

قال ولا يقال أن الرضا إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتقام فإن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده فقد يحب ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما أراده، ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان، لم تأولت ذلك ؟ فلابد أن يقول، لأن الغضب غليان دم القلب، والرضى الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى، فيقال له غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ويقال أيضًا وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء فإن جاز هذا جاز هذا وإن امتنع هذا امتنع ذاك، فإن قالوا الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة، قيل له: فقل إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان كل ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض وتسلم أيضًا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله إذ العقول مختلفة فكل يقول إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر.

---

(١) قوله: وتضعه عليه خطأ وهو هكذا في الأصل والله أعلم بالصواب.

وهذا الكلام يقال لكل من نفي صفة من صفات الله تعالى لامتناع ذلك في المخلوق فإنه لابد أن يثبت شيئًا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود فإن وجود العبد كما يليق به ووجود الباري كما يليق به.

فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وما سمي به الرب نفسه وسمي به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير أو سمي به بعض صفاته كالغضب والرضا وسمي به بعض صفات عباده فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود ونعقل أن بين المعنيين قدرًا مشتركًا لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركا إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد إلا في الأذهان ولا يوجد في الخارج إلا معينًا مختصًا فيثبت في كل منهما كما يليق به بل لو قيل غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية الآدميين لأن الملائكة ليسوا من ذوي الأخلاط الأربعة حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه فغضب الله أولى، وقد نفي الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك وقال إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصفًا بشيء من ذلك وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: « إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله » اهـ.

إثبات صفة الفرح والضحك والعجب

قال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية: وقوله ﷺ: « لله اشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه.

وقوله: « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب » حديث حسن.

قال صاحب الكواشف في شرحه: في الأحاديث المذكورة إثبات صفة الفرح، والضحك، والعجب، وهي من صفات الأفعال الاختيارية.

الحديث الأول: المفردات:

الفرح لغة: السرور، التوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة، الراحلة: من الإبل ما كان صالحًا لأن يرحل.

هذا حديث جليل فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في توبتهم، الخالعين ثياب الإصرار على المعاصي البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين لعفوه الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم وحصول مطالبهم.

روي هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة، والبراء بن عازب والنعمان بن بشير، وأنس، ولفظ حديث أنس قال: « قال رسول الله ﷺ لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » متفق عليه ولمسلم: « لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة وفانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه في ثبوت هذه الصفة ونفي الإجمال والاحتمال وفرحه تعالى بتوبة عبده لأن رحمته سبقت غضبه وكل ما كان من صفة مالرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب فإنه سبحانه رحيم ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك، ليس كذلك غضبه فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائمًا غضبًا لا يتصور انفكاكه ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب ووسع كل شيء رحمة وعلمًا ولم يسع كل شيء غضبًا وانتقامًا اهـ.

الحديث الثاني:

في هذا الحديث الجليل يخبرنا ﷺ عن كرمه وجوده وأنه متنوع، فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر جعل الله لكل منهما سببًا أوصله الجنة، فالأول قاتل في سبيل الله

فأكرمه الله على يد الرجل الآخر الذي لم يسلم بعد الشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصديقين، وأما الآخر فإن الله جعل باب التوبة مفتوحًا لكل من أراد التوبة بالإسلام فلما تاب محا الله عنه الكفر وأثره ثم من عليه بالشهادة فدخل الجنة كأخيه الذي قتله.

الحديث الثالث:

العجب: لغة استحسان الشيء، القنوط: شدة اليأس وقرب خيره: أي تغييره الحال من شدة إلى رخاء، أزلين: الأزل. بمعنى الشدة والضيق.

المعنى: يخبرنا ﷺ أن الله – جل وعلا – يعجب من قنوط عباده عن احتباس المطر ويأسهم من نزوله، وقد اقترب وقت الفرج ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون.

قال الشيخ:

والسبب في أن فرج الله يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق هو تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ومن كمال نعمة الله على عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، وقال ابن عدوان:

ويعجب ربي من قنوط عباده ... فألق لما بينت سمعك واهتد

وفي رقية المرضى مقال نبينا ... ألا ارق به مرضاك ياذا التسدد

رواه أبو داود ياذا وغيره ... ألا احفظ هداك الله سنة أحمد

صفة الرجل والقدم

قال تعالى في سورة « ق »:

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

قال (ك): يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقي وهي تقول هل من مزيد ؟ أي هل بقي شيء تزيدني ؟ هذا الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث.

١ - قال البخاري عند تفسير هذه الآية: بسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: « يلقي في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول قط قط ».

٢- وقال (احم) بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقًا آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة ؟ ».

٣- وقال (خ) بسنده عن أبي هريرة قال. قال رسول الله ﷺ: « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول قط قط فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقًا آخر ؟ ».

٤- روي مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد قال. قال رسول الله ﷺ: « احتجت الجنة والنار فقالت النار في الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة في ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار أنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء عن عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها ؟ ».

٥- وقال (احم) بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « افتخرت الجنة والنار فقالت النار يارب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف، وقالت الجنة أي رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين فيقول الله تبارك وتعالى للنار أنت عذابي أصيب بك من أشاء وقال للجنة أنت رحمتي وسعت كل شيء ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقي في النار أهلها فتقول هل من مزيد، قال ويلقي فيها وتقول هل من مزيد ويلقي فيها وتقول هل من مزيد، حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها فتنزوي وتقول قدني قدني، وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله تعالى أن يبقى فينشيء الله سبحانه وتعالى لها خلقًا مما يشاء ».

٦- قال الحافظ أبو يعلي في مسنده بسنده عن أبي بن كعب قال: أن رسول الله ﷺ قال يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة فأسجد سجدة يرضى بها عني ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وأنا على الحوض، قيل وما الحوض يا رسول الله ؟ قال ﷺ والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحًا من ريح المسك وآنيته أكثر من عدد النجوم لا يشرب منه إنسان فيظمأ ولا يصرف فيروي أبدًا ».

قال محمد تقي الدين: هذا الحديث وأمثاله تلقاه السلف الصالح بالقبول ولم يؤولوه ولم يحرفوه فيقولون إن لله قدمًا مع نفي التشبيه بالمخلوقين ورجلا مع نفي التشبيه بالمخلوقين وقد تقدم الكلام في اليدين والوجه وجل الله أن يشبه شيئًا من خلقه أو يشبهه شيء من خلقه ولو كان ما ذكر في هذه الأحاديث غامضًا يحتاج إلى بيان لبينه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المجتهدون وأئمة الحديث ونحن بهم مقتدون وعلى آثارهم بفضل الله مهتدون اهـ.

الكلام في الإسلام والإيمان والإحسان

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ إخبارًا منه تعالي بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوي الإسلام وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا

بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ الآية وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ ثم أخبر تعالى بأن الذين أتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم فقال: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بغي بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم فحمل بغض بعضهم البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقًا، ثم قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: ﴿ **فَإِنْ حَآجُّوكَ** ﴾ أي جادلوك في التوحيد: ﴿ **فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ أي فقد أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له: ﴿ **وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ أي على ديني يقول كمقالتي كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ الآية ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقة دينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به: إلى الكتابيين من الملبين والأميين من المشركين فقال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ** ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته، وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

وفي (ق) وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك.

وقد روي عبد الرزاق عن معمر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار » رواه (م).

وقال ﷺ: « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال: « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ».

وقال (أحم) بسنده عن أنس أن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ: « يا فلان قل لا إله إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم: فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: « الحمد لله الذي أخرجه[1] بي من النار » رواه (خ) في الصحيح إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث اهـ.

وعن عمر بن الخطاب قال بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه فقال يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان: قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت.

---

(١) قال المصنف أخرجه إن صحت هذه اللفظة فمعناها حفظه.

قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ثم انطلق فلبث مليًا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم رواه (م).

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرح هذا الحديث ما نصه:

فأما الإسلام فقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل وأول ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وهو عمل اللسان ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً وهي منقسمة إلى عمل بدني كالصلاة والصوم وإلى عمل مالي وهو إيتاء الزكاة وإلى ما هو مركب منهما كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة.

وفي رواية ابن حبان أضاف إلى ذلك الاعتمار والغسل من الجنابة وإتمام الوضوء وفي هذا تنبيه على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام.

ثم قال: من أقر بالشهادتين صار مسلمًا حكمًا فإذا دخل في الإسلام بذلك ألزم القيام ببقية خصال الإسلام ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام.

قال محمد تقي الدين: وللشهادتين شروط لا تنفعان إلا بها: الأول: معرفة معناهما، الثاني: اعتقاد صحة هذا المعنى، الثالث: العمل بمقتضاهما فمن دعا غير الله أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كإنزال المطر وشفاء المريض وإعادة عقل المجنون بلا علاج وتنوير القلب وشرح الصدر وهداية القلوب وما أشبه ذلك فهو كافر لا ينفعه النطق بلا إله إلا الله: لأنه إما أن يكون جاهلاً بمعناها أو جاحدًا له وكلاهما كفر ومن خالف رسول الله ﷺ على عمد فيما جاء به من أمور الدين فهو جاهل بمعنى محمد رسول الله أو جاحد لهذه الشهادة.

ثم قال: ومما يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام قوله ﷺ: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده اهـ.

قال محمد تقي الدين: وبهذا يظهر أن الإسلام ليس منحصرًا في الأمور الخمسة المذكورة في حديث جبريل وإنما اقتصر النبي ﷺ عليها لأن أكثر الناس يستطيعونها ولأن النيابة لا تجزئ فيها فلا يفعلها أحد عن أحد في الجملة بخلاف غيرها كقضاء الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله إذا لم يكن فرض عين وإقامة العدل بين الناس وأيضًا فإن تلك الخمسة لا تصح إلا بالنية وغيرها يصح ولو بلا نية كقضاء الدين مثلاً، وإلا فكل ما أخبرنا النبي ﷺ أنه فرض لا يتم الإسلام إلا به اهـ.

ثم قال ابن رجب:

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف اهـ.

قال محمد تقي الدين: فهاتان الفريضتان من خير فرائض الإسلام، وهما إطعام الطعام وقراءة السلام ولم تذكرا: في حديث جبريل اهـ.

ثم قال: ابن رجب:

وفي صحيح الحاكم عن أبي هريرة قال: أن للإسلام ضوء ومنارًا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على بني آدم إذا لقيتهم وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم فمن انتقص منهن شيئًا فهو متهم من الإسلام بتركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره.

وخرجه بن مردوية من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: للإسلام ضياء ونور وعلامات كمنار الطريق فرأسها وجماعها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإتمام الوضوء والحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة ولاة الأمر وتسليمكم على أنفسكم وتسليمكم على أهليكم إذا دخلتم بيوتكم، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتموهم وفي إسناده ضعف ولعله موقوف اهـ.

قال محمد تقي الدين: ولا يضر ضعفه لأنه سيق لتقوية ما قبله.

ثم قال ابن رجب:

وصح عن حذيفة أنه قال: الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم والصلاة سهم والزكاة سهم والجهاد سهم وصوم رمضان سهم ولعل السهم الثامن الحج والأمر بالمعروف سهم والنهي عن المنكر سهم وخاب من لا سهم له وخرجه البزار مرفوعًا والموقوف أصح، ورواه أبو يعلي عن علي مرفوعًا والموقوف على حذيفة أصح قاله الدارقطني وغيره اهـ.

قال محمد تقي الدين: وهو في حكم المرفوع لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي.

ثم قال ابن رجب:

وقوله يعني الإسلام سهم، أي الشهادتان لأنهما علم الإسلام وبهما يصير الإنسان مسلمًا وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمى الإسلام أيضًا كما روي عن النبي ﷺ أنه قال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وسيأتي في موضعه إن شاء الله.

ويدل على هذا أيضًا ما أخرجه (حم) و (ت) و (ن) من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط وجميعًا ولا تعوجوا وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد أحد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه إن فتحته تلجه والصراط الإسلام والسوران حدود الله عز وجل والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من جوف الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم، زاد (ت) والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ففي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ أن الإسلام هو الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه ونهى عن مجاوزة حدوده وأن من ارتكب شيئًا من المحرمات فقد تعدى حدوده اهـ وأما الإيمان فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره وقد ذكر الله في كتابه الإيمان بهذه الأمور الخمسة في مواضع كقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار، وقد أدخل في هذه الآيات الإيمان بالقدر خيره وشره ولأجل هذه الكلمة روي ابن عمر هذا الحديث محتجًا به على من أنكر القدر وزعم أن الأمر أنف يعني أنه مستأنف لم يسبق به سابق قدر من الله عز وجل وقد غلظ عبد الله بن عمر عليهم وتبرأ منهم وأخبر أنه لا تقبل منهم أعمالهم بدون الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر على درجتين أحدهما الإيمان بالله تعالى سبق في علمه ما يعلمه العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم.

فهذه الدرجة يثبتها أهل السنة والجماعة وتنكرها القدرية: والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني الذي سئل بن عمر عن مقالته وكعمرو بن عبيد وغيره.

وقد قال كثير من أئمة السلف، ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوا فقد كفروا يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن الله تعالى قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك وأن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه.

وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد على تكفيره وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام.

فإن قيل فقد فرق النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمان وجعل الأعمال كلها

من الإسلام لا من الإيمان والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان.

وحكي الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثًا سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي والزهري وإبراهيم ويحيى بن كثير وغيرهم وقال الثوري: هو رأي محدث أدركنا الناس على غيره وقال الأوزاعي: وكان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار.

أما بعد: فإن الإيمان فرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ذكره (خ) في صحيحه.

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ الآية.

وفي (ق) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لوفد عبد القيس آمركم بأربع الإيمان بالله وحده. وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخمس. وفي (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان (ولفظه لمسلم). وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان وتفريق النبي ﷺ بينهما وإدخاله الأعمال في مسمى الإسلام دون الإيمان فإنه يتضح بتقرير أصل، وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه فإذا قرن ذلك الاسم بغيره

صار دالاً على بعض المسميات والاسم المقرون به دال على باقيها وهذا كاسم الفقير والمسكين فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل ما هو محتاج فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده فإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي، وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل قال كثير من أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله إذا ذكر كل اسم على حدة مضمومًا إلى الآخر فقيل المؤمنون والمسلمون جميعًا أريد بأحدهما معنى يرد به الآخر وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمهم وقد ذكر هذا المعنى أيضًا الخطابي في كتابه معالم السنن وتبعه عليه جماعة من العلماء من بعده.

ويدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفردًا في حديث وفد عبد القيس بما فسره به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل.

وفسر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان اهـ.

قال محمد تقي الدين: وبيان ذلك كما قال المحققون أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

يعني إذا ذكر الإسلام والإيمان في موضع واحد افترقا في الدلالة فيدل الإسلام على الأعمال الظاهرة ويدل الإيمان على ما ذكر في حديث جبريل وهو التصديق وأما إذا ذكر كل واحد منهما وحده فإنهما يجتمعان.

فالإسلام الصحيح يدل على الأعمال الظاهرة وتصديق القلب والإيمان كذلك يدل عليهما وهذا ملخص ما تقدم.

ثم قال ابن رجب وفي المسند للإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال: الإسلام علانية والإيمان في القلب وهذا لأن الأعمال تظهر علانية والتصديق في القلب لا يظهر.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلى على الميت: اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان لأن الأعمال بالجوارح وإنما يتمكن منه في الحياة

فأما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب ومن هنا قال المحققون من العلماء كل مؤمن مسلم فإن من حقق الإيمان ورسخ في قلبه قام بأعمال الإسلام كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام وليس كل مسلم مؤمنًا فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا فلا يتحقق القلب به تحققًا تامًا مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام فيكون مسلمًا وليس بمؤمن الإيمان التام كما قال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ الآية فلم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين وهو قول ابن عباس وغيره بل كان إيمانهم ضعيفًا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا** ﴾ الآية يعني لا ينقصكم من أجورها فدل على أن معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم.

وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له لم لا تعط فلانًا وهو مؤمن فقال النبي ﷺ أو مسلم يشير إلى أنه لم يتحقق مقام الإيمان فإنما هو في مقام الإسلام الظاهر.

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضًا لكن اسم الإيمان ينفي عن من ترك شيئًا من واجباته كما في قوله ﷺ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: وافق الحافظ ابن رجب الحافظ بن القيم في أن أولئك المذكورين في آخر سورة الحجرات وهم الإعراب كان عندهم شيء من الإيمان وهذا أحد القولين لأهل السنة والقول الثاني: أنهم كانوا منافقين لاحظ لهم في الإيمان وهو الذي رجحه (خ) وإليه أميل لأن الله تعالى نفي عنهم الإيمان بقوله ولما يدخل الإيمان في قلوبكم فلا يجوز أن يقال بل دخل الإيمان في قلوبهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾.. إلخ. فليس فيه دليل على أنهم كانوا مؤمنين **لأن طاعة الله ورسوله لا تقبل إلا بعد دخول الإيمان في القلوب وهو مطابقة اللسان** للقلب وهؤلاء لم تكن قلوبهم مطابقة لألسنتهم وحديث سعد يؤيد هذا الترجيح فإنه قال

للنبي ﷺ يا رسول الله مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمنًا، فقال له النبي ﷺ أو مسلمًا فأعاد عليه هذا القول ثلاث مرات فأجابه فيهن بالجواب نفسه ثم قال له: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، الحديث.

فقول النبي ﷺ: أو مسلمًا: معناه والله أعلم: لعل هذا الرجل الذي حلفت أنه مؤمن ليس كما ظننت وإنما هو مسلم فظهر بذلك أن من لم يدخل الإيمان في قلبه مسلم فيما يرى الناس وليس بمؤمن والله أعلم اهـ.

ثم قال ابن رجب:

وقد اختلف أهل السنة هل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان أو يقال ليس بمؤمن لكنه مسلم على قولين: وهما روايتان عن أحمد وأما اسم الإسلام فلا ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرماته وإنما ينفي بالإتيان بما ينافيه بالكلية ولا يعرف في شيء من السنة الصحيحة نفي الإسلام عن من ترك شيئًا من واجباته كما ينفي الإيمان عن من ترك شيئًا من واجباته وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات وإطلاق النفاق أيضًا وقد اختلف العلماء هل يسمى مرتكب الكبائر كافر كفرًا صغيرًا أو منافقًا النفاق الأصغر ولا أعلم أن أحدًا منهم أجاز إطلاق نفي اسم الإسلام عنه إلا أنه روي عن ابن مسعود أنه قال ما تارك الزكاة بمسلم. ويحتمل أنه كان يراه كافرًا بذلك خارجًا عن الإسلام.

وكذلك روي عن عمر فيمن تمكن من الحج ولم يحج أنهم ليسوا بمسلمين والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية بقوله لم يدخلوا في الإسلام بعد، فهم مستمرون على كتابيتهم وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينتفي إلا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح دخل فيه الإيمان كله من التصديق وغيره وأخرج (ن) من حديث عبيد بن مالك أن النبي ﷺ بعث سرية فأغارت على قوم فقال رجل منهم إني مسلم فقتله رجل من السرية فنمي الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديدًا فقال الرجل إنما قالها تعوذًا من القتل فقال النبي ﷺ أن الله أبى على أن أقتل مؤمنًا ثلاث مرات فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة لم يصر من قال أنا مسلم مؤمن بمجرد هذا القول وقد أخبر الله تعالى عن ملكة سبأ أنها

دخلت في الإسلام بهذه الكلمة وقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وأخبر عن يوسف عليه السلام أنه دعا بأن يموت على الإسلام وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق. وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم قال. قال رسول الله ﷺ يا عدي أسلم تسلم قلت وما الإسلام ؟ قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتؤمن بالأقادر كلها خيرها وشرها وحلوها ومرها فهذا نص في أن الإيمان بالقدر من الإسلام ثم أن الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاع، والحق أن التصديق القائم بالقلوب يتفاضل وهذا هو الصحيح وهو أصح الروايتين عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل فإن إيمان الصديقين الذين يتجلى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب، ليس كإيمان غيرهم فلا يبلغ هذه الدرجة من لو شكك لدخله الشك، ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين ومن هنا جاء في الحديث ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره وسئل ابن عمر هل كانت الصحابة يضحكون فقال نعم وأن الإيمان في قلوبهم أمثال الجبال فأين هذا ممن لا إيمان في قلبه ما يزن ذرة ولا شعيرة كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار.

فصل

ثم قال ابن رجب:

قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضًا وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة ويدخل في مسماها أيضًا أعمال الجوارح الباطنة فيدخل في أعمال الإسلام إخلاص الدين لله تعالى والنصح له ولعباده وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه وزيادة الإيمان بذلك وتحقيق التوكل على الله عز وجل وخوف الله سرًا وعلانية والرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر واستشعار قرب الله من العبد ودوام استحضاره وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما والحب في الله والبغض في الله

والعطاء له والمنع له وأن يكون جميع الحركات والسكنات له وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم وكثرة الحياء وحسن الخلق ومحبة ما يحبه لنفسه لإخوانه المؤمنين ومواساة المؤمنين خصوصًا الجيران ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم والحزن بما يحزنهم.

ولنذكر بعض النصوص الواردة بذلك فأما ما ورد في دخوله في اسم الإسلام ففي مسند (ح) و (ن) عن معاوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله بالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك الله به ؟ قال الإسلام قتل وما الإسلام ؟ قال أن تسلم قلبك لله تعالى وأن توجه وجهك لله وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وفي رواية قلت وما آية الإسلام ؟ فقال أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت [1]وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وكل المسلم على المسلم حرام وفي السنن عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته بالخيف من منى ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من وراءهم، فأخبر أن هذه الثلاث الخصال تنفي الغل عن فلب المسلم وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه سئل أي المسلمين أفضل ؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: المسلم أخو المسلم فلا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.

وأما ما ورد في دخوله في اسم الإيمان فمثل قوله: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ الآية قوله: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ الآية وقوله: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ وفي صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولاً »، والرضا بربوبية الله يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له والرضا بتدبيره للعبد واختياره له والرضا بالإسلام دينا

(١) هكذا في الأصل وفيه نظر.

يتضمن اختياره على سائر الأديان والرضا بمحمد رسولا يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح كما قال تعالى: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ الآية وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار ». وفي رواية: وجد بهن حلاوة الإيمان وفي بعض الروايات: طعم الإيمان وحلاوته. وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفي رواية: من أهله وماله والناس أجمعين.

وفي مسند (حم): عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما وأن تحترق في النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئًا وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ قلت يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أني مؤمن قال ما من أمتي أو قال هذه الأمة عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرًا ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لا يغفرها إلا الله وهو مؤمن.

وفي المسند وغيره عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن.

وفي مسند بقي بن مخلد عن رجل سمع رسول الله ﷺ قال صريح الإيمان إذا أسأت أو ظلمت عبدك أو أمتك أو واحد من الناس صمت أو تصدقت وإذا أحسنت استبشرت، وفي المسند للإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل وفيه أيضًا عن عمرو بن عنبسة قال قلت يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال: طيب الكلام، وإطعام الطعام، فقلت ما الإيمان ؟ قال الصبر والسماحة، قلت أي الإسلام أفضل ؟ قال من سلم

المسلمون من لسانه ويده، قلت أي الإيمان أفضل ؟ قال خلق حسن.

وقد فسر الحسن البصري الصبر والسماحة فقال هو الصبر عن محارم الله والسماحة بأداء فرائض الله.

وفي (ت) وغيره عن عائشة عن النبي ﷺ قال أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخرجه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة وخرجه البزار في مسنده من حديث عبد الله بن معاوية العامري عن النبي ﷺ قال ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان من عبد الله وحده بأنه لا إله إلا هو وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام فذكر الحديث. وفي آخره فقال رجل فما تزكية المرء نفسه يا رسول الله ؟ قال أن يعلم أن الله معه حيث ما كان.

وخرج أبو داود أول الحديث دون آخره.

وخرج الخطابي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت.

وفي (ق) عن عبد الله بن عمر عن النبي ص قال الحياء شعبة من الإيمان وخرج (حم) و (ج) من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم. وفي (ق) عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

وفي رواية لـ(م) المؤمنون كرجل واحد، وفي رواية أيضًا: المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله.

وفي (ق) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه.

وفي مسند (حم) عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: المؤمن مرآة المؤمن. المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وفي صحيح (خ) عن أبي شريح الكعبي عن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا: من ذلك يا رسول الله ؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه».

وخرج الحاكم من حديث بن عباس عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع».

وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث سهل بن معاذ الجهني عن النبي ﷺ قال: «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فذلك المؤمن» وروي (حم) وأنكح لله فقد استكمل إيمانه وفي رواية للإمام (حم) أنه سئل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان فقال أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله فقال وماذا يا رسول الله ؟ قال: وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وفي رواية له وأن تقول خيرًا أو تصمت وفي هذا الحديث: أن كثرة ذكر الله من أفضل الإيمان.

وخرج أيضًا من حديث عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول: لا يستحق العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله تعالى: وخرج أيضًا من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وقال ابن عباس من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا خرجه (ج) ومحمد بن نصر المروزي.

فصل

وأما الإحسان فقد جاء ذكره في القرآن في مواضع تارة مقرونًا بالإيمان وتارة مقرونًا بالإسلام وتارة مقرونًا بالتقوى أو بالعمل الصالح.

فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الآية: ٩٣.

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾

والمقرون بالإسلام كقوله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ الآية.

والمقرون بالتقوى كقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾.

وقد ثبت في صحيح (م) تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عيانًا في الآخرة.

وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الله الكفار في الآخرة أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون وجعل ذلك جزاء لحالهم في الدنيا وهو تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته ومراقبته في الدنيا فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة.

وقوله ﷺ في تفسير الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة وهو استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم كما جاء في رواية أبي هريرة أن تخشى الله كأنك تراه ويوجب أيضًا النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها وقد وصى النبي ﷺ جماعة من الصحابة بهذه الوصية كما روي إبراهيم الآجري عن أبي الأحوص عن أبي ذر قال: وصاني خليلي ﷺ أن أخشى الله كأني أراه فإن لم أكن أراه فإنه يراني.

وروي عن ابن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال اعبد الله كأنك تراه وخرجه النسائي من حديث زيد بن أرقم مرفوعًا وموقوفًا: كن كأنك ترى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وخرج الطبراني من حديث أنس أن رجلاً قال يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزًا فقال صل صلاة مودع فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك وفي حديث حارثة المشهور وقد روي من وجوه مرسلة.

وروي متصلاً والمرسل أصح أن النبي ﷺ قال يا حارثة كيف أصبحت ؟ قال أصبحت مؤمنًا حقًا، قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة قال يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها قال أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه اهـ.

وروي من حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ وصى رجلاً فقال له: استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك.

ويروي من وجه آخر مرسلاً: استحى من ربك.

ويروي عن معاذ أن النبي ﷺ وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال: «استحى من الله كما تستحي من رجل ذي هبة من أهلك».

ووصى أبو الدرداء رجلاً فقال اعبد الله كأنك نراه وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجبه ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا خرجه أبو نعيم وغيره قوله: ﷺ فإن لم تكن تراه فإنه يراك قيل إنه تعليل للأول فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه فليستعن على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه وقيل بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه كما قال بعض العارفين اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك، وقال بعضهم: خف الله على قدر قدرته عليك واستحي من الله على قدر قربه منك، وقال بعض العارفين من السلف من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص فالإشارة إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما.

أحدهما: مقام الإخلاص وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى

لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

والثاني: مقام المشاهدة وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه وهو أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام ويتفاوت أهل هذه المقامات فيه بحسب قوة نفوذ البصائر وقد فسر طائفة من العلماء المثل الأعلى المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بهذا المعنى ومثل قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ والمراد: مثل نوره في قلب المؤمن كذا قاله أبي بن كعب وغيره من السلف.

وقد سبق حديث أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت. وحديث ما تزكية المرء نفسه قال أن يعلم أن الله معه حيث كان.

وخرج الطبراني، من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال ثلاثة في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله رجل حيث توجه علم أن الله معه وذكر الحديث: وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ الآية: وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية. وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ وقد وردت الأحاديث الصحيحة الندب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات كقوله ﷺ أن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه أو ربه بينه وبين القبلة وقوله أن الله قبل وجهه إذا صلى وقوله أن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا ».

وفي رواية وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته وفي رواية: هو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد وقوله يقول الله عز وجل أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه.

وقوله: يقول الله عز وجل: أنا مع ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.

ومن فهم شيئًا من هذه النصوص تشبيهًا أو حلولاً أو اتحادًا فإنما أتي من جهله وسوء فهمه عن الله عز وجل وعن رسوله والله ورسوله بريئان من ذلك كله فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

قال محمد تقي الدين: ثم تكلم الحافظ ابن رجب: فيما يجده أهل المشاهدة والمراقبة الذين بوأهم الله درجة الإحسان في عبادة ربهم ومناجاته وحبه والتبتل إليه من لذة الأنس به ما لا يستطيع اللسان ولا القلم أن يبينه حق التبيين ولو أطال القول فيه وإنما يدرك بالذوق لا حرمنا الله من ذلك وحاصله أن من استأنس بالله استوحش من غيره ومن لم يستأنس بالله لم يزل في وحشة دائمة ولو سيقت له الدنيا بحذافيرها.

والأمارات بفتح الهمزة العلامات، ووقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ولكن له علامات تسمى العلامات الصغرى وعلامات أخرى تسمى العلامات الكبرى والمراد بالأمارات هنا العلامات الصغرى، ومعنى أن تلد الأمة ربتها. وفي رواية أبي هريرة ربها مختلف فيه. فقال أكثر الشراح معناه أن يكثر السبي والتسري بالسبايا فتلد المرأة لسيدها أولادًا يكونون سادتها تبعًا لأبيهم وهذا الشرح لا يعجبني وليس بصحيح لأنه كان واقعًا في زمان النبي ﷺ وفي زمان الصحابة والمفهوم من الحديث أنه يكون في آخر الزمان ويرده أيضًا أن الأم كيفما كانت فهي في الإسلام سيدة لأولادها قال تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ فيجب على كل ولد أن يتخذ أمه سيدة له وإن كانت قبل ذلك أمة مملوكة ولا يمكن أن تكون له عليها سيادة أبدًا والذي أختاره أن معنى ذلك أن يكثر العقوق في آخر الزمان حين يضعف تمسك الناس بالإسلام ويعم الجهل والفسق ويكثر عقوق الأولاد لآبائهم وأمهاتهم حتى أن الأم تضطر أن تعامل أولادها حين يكبرون ويستغنون عنها وتفتقر هي لهم معاملة الأمة لسادتها وذلك مشاهد في هذا الزمان فإن المحافظين على التمسك بالدين يكرمون آباءهم وأمهاتهم ويعظمونهم، وضعفاء الدين والمعرضون

يحتقرون آباءهم وأمهاتهم خصوصًا إذا كانوا شيوعيين لا يرون لوالديهم عليهم فضلاً هذا هو الذي تحقق عندي وبحثت في فتح الباري شرح البخاري للحافظ بن حجر فوجدت رأيه يطابق رأيي تمامًا فإنه قال بعد ما ذكر ثلاثة آراء في شرح اللفظين المذكورين وطعن فيها ما نصه:

الرابع: أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام فأطلق عليه ربها مجازًا لذلك أو المراد بالرب الربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه. ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة ومحصله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي مربيًا والسافل عاليًا، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى أن تصير الحفاة ملوك الأرض اهـ.

ثم قال ابن رجب: والعلامة الثانية أن ترى الحفاة العراة العالة والمراد بالعالة الفقراء كقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ وقوله رعاء الشاء يتطاولون في البنيان هكذا في حديث عمر والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته وإتقانه.

وفي حديث أبي هريرة ذكر ثلاث علامات منها أن تكون الحفاة العراة رؤساء الناس ومنها أن يتطاول رعاة البهم في البنيان وروي هذا الحديث عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بريدة فقال فيه وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ملوك الناس قال فقام رجل فانطلق فقلنا يا رسول الله من هؤلاء الذين نعت ؟ قال هم العريب وكذا روي هذا الحديث هذه اللفظة الأخيرة على بن زيد عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر وأما اللفظ الأول فهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة بمعناه وقوله الصم العمي إشارة إلى جهلهم وعدم علمهم وفهمهم وفي هذا المعنى أحاديث متعددة.

فخرج (حم) و (ت) من حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع: المراد باللكع اللئيم. وخرج (حم) والطبراني من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «بين يدي الساعة ستون خدعة يتهم فيها الأمين ويؤتمن فيها المتهم

وينطق فيها الرويبضة قالوا: وما الرويبضة؟ قال: السفيه ينطق في أمر العامة» وفي رواية: «الفاسق يتكلم في أمر العامة».

مباحث في الإيمان

المبحث الأول: ما هو الإيمان:

قال شارح الطحاوية: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافًا كثيرًا فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهوية وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين، إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكر الطحاوي: أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان ومنهم من يقول أن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصل، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي ويروي عن أبي حنيفة اهـ.

المبحث الثاني: في زيادة الإيمان ونقصانه:

قال شارح الطحاوية ص٣٨٤ والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدًا ومنها قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم: ٧٧]، ﴿ **وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا** ﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها أن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به ؟ فهل في قول الناس: ﴿ **قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ** ﴾ زيادة مشروع ؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين. زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينًا.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ**

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي في تفسيره عند هذه الآية بسنده عن أبي هريرة قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: « لا ، الإيمان مكمل في القلب زيادته كفر ونقصانه شرك ».

فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير عن هذا الحديث فأجاب: بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التاريخ المشهورة، وأما أبو مطيع، فهو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وعمر بن على الفلاس، والبخاري وأبو داود والنسائي وأبو حاتم الرازي، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني وغيرهم، وأما أبو المهزم، الراوي عن أبي هريرة، وقد تصحف على الكتاب، واسمه يزيد بن سفيان، فقد ضعفه أيضًا، غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي متروك، وقد اتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثًا.

وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين، وقال ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »، والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى ذرة من إيمان، فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السموات والأرض سواء ؟ وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان.

وكلام الصحابة في هذا المعنى كثير أيضًا.

منه قول أبي الدرداء: من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص ؟

وكان عمر يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانًا، فيذكرون الله تعالى عز وجل، وكان ابن مسعود يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا.

وكان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن ساعة.

ومثله عن عبد الله بن رواحة.

وصح عن عمار بن يسار أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم، ذكره (خ) في صحيحه وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق اهـ.

المبحث الثالث: في بيان أن الإيمان لا يثبت إلا بالعمل مع التصديق:

قال شارح الطحاوية: صفة ٤٠٨ والكتاب والسنة مملوآن بها يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] فنفي الإيمان: حتى توجد هذه الغاية — دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب، الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان ص١٧٠ ما نصه.

فصل

فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى وبلفظ الدين كما تقدم، فإن النبي ﷺ بين أن: « الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام، وكذلك روي أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقد فسر بالإيمان وفسر بالتقوى، وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق، وقد روي مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه فسر البر بالإيمان.

قال محمد بن نصر: بسنده عن القاسم قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فسأله عن الإيمان فقرأ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية فقال الرجل. ليس عن البر سألتك، فقال، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فقرأ عليه الذي قرأت عليك، فقال له الذي قلت لي، فلما أبى أن يرضى قال له: إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها ».

ثم قال شيخ الإسلام ص١٧٨: والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الإنسان محبًا لله ورسوله، مريدًا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه.

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنًا كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله. ويوالي أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا: وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقربه وبخلاف ما شهد به الشهود.

فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة، قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه، فالكفر عندهم شيء واحد، وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو تكذيب القلب وتصديقه، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو ؟

وهذا قول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان، فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة: وقد كفرهم السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول، وقالوا: إبليس كافر بنص القرآن، وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم،

لا لكونه كذب خبرًا، وكذلك فرعون وقومه.

قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٣].

فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾.

فدل على أن فرعون كان عالمًا بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عنادًا وبغيًا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ وكذلك اليهود الذي قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فهؤلاء غلطوا في أصلين: أحدهما: أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، فليس معه عمل، وحال وحركة وإرادة ومحبة، وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالاً ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله، فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه، فهو من الإيمان المستحب، فالأول لابد لكل مؤمن منه ؛ ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،

بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثله خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى: ﴿ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ الآية [ق: ٣٢، ٣٣]. ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعادات لله.

والثاني:

ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق.

وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه.

وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرئاسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورئاسة وصداقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق.

ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدم في صدق الرسل، وإنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم، كقولهم لنوح: ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ** ﴾ [الشعراء: ١١١].

ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه، لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون ومن النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم.

وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل صفة: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا**

مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

ومثل قوله فرعون: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقول فرعون: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

ومثل قول مشركي العرب: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا ﴾ ومثل قول قوم شعيب له: ﴿ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء ﴾ [هود: ٨٧]. ومثل قول عامة المشركين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججًا تقدح في صدق الرسل، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهواءهم وعادتهم، فلذلك لم يتبعوهم، وهؤلاء كلهم كفار، بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعته فراق دين آباءهم وذم قريش لهم، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به بل لهوى النفس، فكيف يقال: أن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله اهـ.

قال شارح الطحاوية في تلخيص أقوال الناس في الإيمان ما نصه ص٣١٢:

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم.

كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية، أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة، كما قاله الجهم، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة، اختلاف صوري، فإن

كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب. أو جزءًا من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، نزاع لفظي، لا يترتب عليه فساد اعتقاد، والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى اهـ.

وقال قبل ذلك في تفصيل قول الكرامية:

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط: فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به وقولهم ظاهر الفساد اهـ.

قال محمد تقي الدين: وكذلك قول أبي منصور الماتريدي: أن الإيمان هو التصديق وحده وهو رواية عن أبي حنيفة كما في شرح الطحاوية: فيكون لأبي حنيفة قولان:

أولهما: أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب.

والثاني: مثل قول الماتريدي.

والثالث: ما رجع إليه وهو موافق لسائر أئمة أهل السنة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

وقال شارح الطحاوية وهو حنفي غير متعصب ص٣٣٣.

وقد حكي الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد، وأن حماد بن زيد لما روي له حديث: أي الإسلام أفضل إلى آخره، قال له، ألا تراه يقول: أي الإسلام أفضل، قال الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان فسكت أبو حنيفة، قال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة ؟ قال: بم أجيبه وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ.

ثم قال شارح الطحاوية: مسألة الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول أي الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، والناس فيه على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار وهذا أصح الأقوال.

أما من يوجبه فلهم مأخذان: أحدهما: أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الوفاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به.

قالوا: والإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرًا: ليس بإيمان، كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم.

وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافرًا إذا علم منه أنه يموت مؤمنًا، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد وليس هذا قول السلف ولا كان يقول: بهذا من يستثني من السلف في إيمانه، وهو فاسد، فإن الله تعالى قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فأخبر أنهم يحبهم أن اتبعوا الرسول، فاتباع الرسول شرط المحبة، والمشروط لا يتأخر عن الشرط، وغير ذلك من الأدلة.

ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه، حتى صار الرجل منهم يستثنى في الأعمال الصالحة، يقول: صليت إن شاء الله ! ونحو ذلك، يعني القبول.

ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهم: هذا ثوب إن شاء الله ! هذا حبل إن شاء الله: فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه: يقولون: نعم، لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

المأخذ الثاني:

أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار: فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله المقربين: وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء، بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لاشك فيه، كما قال تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال ﷺ حين وقف على المقابر: « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقال أيضًا: « إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله ». ونظائر هذا.

وأما من يحرمه، فكل من جعل الإيمان شيئًا واحدًا، فيقول: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فقولي، أنا مؤمن، كقولي: أنا مسلم، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه، وسموا الذين يستثنون في إيمانهم الشكاكة، وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧] بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم، لأنه علم أن بعضهم يموت: وفي كلا الجوابين نظر: فإنهم وقعوا فيما فروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين، مع علمه بذلك، فلا شك في الدخول، ولا في الأمن، ولا في دخول الجميع أو البعض، فإن الله قد علم من يدخل فلاشك فيه أيضًا.

فكان قول: إن شاء الله هنا تحقيقًا للدخول، كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه، ولكن إنما لا يحنث الحالف في مثل هذه اليمين لأنه يجزم بحصول مراده.

وأجيب بجواب آخر لا بأس به، وهو: أنه قال ذلك تعليمًا لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل وفي كون هذا المعنى مرادًا من النص – نظر فإنه ما سيق الكلام إلا أن يكون مرادًا من إشارة النص اهـ.

بقية أركان الإيمان

قال شارح الطحاوية: قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ».

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا اتباع الرسل.

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع، فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكارًا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ما هية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العلم عندهم لازم له أزلاً وأبدًا، وإن سموه مفعولاً له فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ.

وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته !

فهذا إيمانهم بالله، وأما كتبه عندهم، فإنهم لا يصفونه بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر، متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته، لينال من العلم أعظم مما يناله غيره: وقوة النفس، ليؤثر بها في هيولي العالم، يقلب صورة إلى صورة ! وقوة التخيل، ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة، وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية ولا وجود لها في الأعيان، وأما اليوم الآخر، فهو أشد الناس تكذيبًا وإنكارًا له في الأعيان.

وعندهم أن هذا العالم لا يخرب، ولا تنشق السموات ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج، كما يفهمها أتباع الرسل، فهذا إيمان هذه الطائفة – الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الدين الخمسة.

ثم قال شارح الطحاوية: وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول، وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر

سورة البقرة — لما تضمنتا هذا الأصل: لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي « الصحيحين » عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه ».

وفي صحيح (م) عن ابن عباس قال: « بينما جبرائيل قاعد عند النبي ﷺ نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته.

وقال أبو طالب المكي: أركان الإيمان سبعة، يعني هذه الخمسة، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار، وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الآية [الذاريات: ٤] وهم الملائكة عند أهل الإيمان واتباع الرسل وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم: وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله ومنهم: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾. ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾. ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾. ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾. ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ومنهم ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾. ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾. ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾. ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ ومنهم ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الآية [الصافات: ١-٣]، ومعنى جمع التأنيث

في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها، « فرقة » و « طائفة » و « جماعة » ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله للواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ الآية من سورة النحل: فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ الآية ١٩، ٢٠.

ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السموات بهم، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه، والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، ومراتبهم من الدنو وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ

وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٧]. ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨]. ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١١]. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٦]. ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢١]. ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى ﴾ [الصافات: ٨] وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم.

فلهذا كان الإيمان بالملائكة كأحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

الإيمان بالكرام الكاتبين

قال شارح الطحاوية ص٤٣٨:

وقوله ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٢١] وفي الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم، والله أعلم بهم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون آتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون، وفي الحديث الآخر: إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم، وأكرموهم جاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال صاحب اليمين

يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه، وواحد من أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل: حافظان وكاتبان، وقال عكرمة عن ابن عباس، ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

الإيمان بملك الموت

قال شارح الطحاوية ص٤٤٠: قوله ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض أرواح العالمين.

(ش) قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]: ولا تعارض بين هذه الآية وقوله: ﴿ حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره، وحكمه وأمره فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه اهـ.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

قال شارح الطحاوية ص٤٤٧: قوله وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

(ش) قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ، يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ، وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٥-٤٧] وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر، لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، والمراد أعم من ذلك.

وعن البراء بن عازب قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر: ثلاث مرات، ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت عليه الملائكة كأن على وجوهم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول يا أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان » قال: « فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها، يعني على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى: فقال قتادة فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك ؟ فيقول ربي الله، فيقولان له. ما دينك فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هو رسول الله: فيقولان له: ما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر، قال ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير: فيقول أنا عملك الصالح، فيقول يارب أقم الساعة. حتى أرجع إلى أهلي ومالي: قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف

المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة. رواه الإمام أحمد وأبو داود وروي النسائي وابن ماجة أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الأسفراييني في صحيحهما وابن حبان اهـ.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين، فقال: « إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » اهـ رواه (ق) وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا. فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة

الأحكام: أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنينًا. الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض، الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه. الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة. الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

الإيمان بالكتب المنزلة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٨].

قال (ك) أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ الآية. وقال (خ): بسنده عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم: ﴿ **وقُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا** ﴾ الآية وقد روي: م، د، ن، بسندهم عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر: ﴿ **آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا** ﴾ الآية الأخرى: ﴿ **آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾.

وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط، بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط، وقال الخليل بن أحمد وغيره الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل: وقال الزمخشري في الكشاف: الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازي عنه وقرره ولم يعارضه، وقال (خ) الأسباط قبائل بني إسرائيل وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم: ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ قال القرطبي، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر، أي في الكثرة بمنزلة الشجرة الواحدة سبطة، قال الزجاج، ويبين لك هذا وذكر سنده عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة، إدريس ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبي: والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد، وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله، وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن معقد بن يسار قال. قال رسول الله ﷺ آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّـهُ ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قال ابن أبي حاتم عن نافع بن أبي نعيم قال أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان ليصلحه قال زياد قلت له: إن الناس ليقولون أن مصحفه كان في حجرته حين قتل فوقع الدم على ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال نافع بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد تقدم وقوله ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة

والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي وانتصاب صبغة الله إما على الإغراء كقوله ﴿ فِطْرَةَ اللهِ ﴾ أي ألزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدلاً من قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقال سيبويه هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله ﴿ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ كقوله: وعد الله. وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردوية من رواية أشعث بن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: إن بني إسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ ربك ؟ فقال اتقوا الله. فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل نعم. أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي: وأنزل الله على نبيه ﷺ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة: كذا وقع في رواية ابن مردوية مرفوعًا وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم اهـ.

قال صاحب الكواشف ص٣٧:

الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتبًا أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمي منها وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى.

قال الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ، مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ وقال: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ وقال: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾.

فيجب الإيمان بها على التفصيل، والبقية أجمالاً ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله: الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقال: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ومنزلة القرآن من الكتب المتقدمة كما ذكر الله فيه قال تعالي ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ وقال ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ

أن يُفْتَرَى من دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قال المفسرون: مهيمنا مؤتمنا وشاهدا علي ما قبله من الكتب ومصدقا لها يعني يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتغيير وتبديل فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو المردود وله يخضع كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب علي عقبيه، قال الله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ ويجب على كل أحد اتباعه ظاهرًا وباطنًا والتمسك به والقيام بحقه قال الله تعالى: ﴿ وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وأوصى النبي ﷺ بكتاب الله فقال: « خذوا بكتاب الله وتمسكوا به » وفي حديث على مرفوعًا: إنها ستكون فتن قلت ما المخرج منها ؟ يا رسول الله ؟ قال كتاب الله وذكر الحديث، ومعنى التمسك به والقيام بحقه، حفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله وتحريم حرامه والانقياد لأوامره والانزجار بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه والوقوف عند حدوده والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إليه على بصيرة.

وفي جواب أهل العلم والإيمان:

السلف متفقون على أن القرآن هو المهيمن والمؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب وهو أعلى منها درجة فإنه قرر ما فيها من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بيانًا وتفصيلاً وبين الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها وبين ما حرف منها وبدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة وبين أيضًا ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما

قبله من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات وكذلك معنى الشهادة والحكم يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله.

ففيه دعوة الرسول وهداية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ما جاء به الرسول وفيه أيضًا من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفصيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن ؟

ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون من أصناف العلماء في أصناف العلوم والفنون لم يجد عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر ولا كتاب آخر فضلاً عن أن تحتاج شيئًا لا يستقل بنفسه عن غيره سواء كان من علوم النقل أو علوم العقل ولله الحمد.

وقال: ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس إلا وفي القرآن بيان معناه فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبيانًا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك ولكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفوا ما جاء به الرسول أما أن لا يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ومن هنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعًا كالفتن التي تحدث بالسيف فالفتن القولية والفعلية من الجاهلية بسبب خفاء النور عنهم فإذا انقطع عنهم نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم.

الإيمان بالأنبياء والرسل

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝ ﴾ [الحج: ٥٢].

قال القاسمي: ألقى الشيطان في أمنيته أي بما يصد عنها، ويصرف المدعوين عن إجابتها: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أي يبطله ويمحقه: ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ أي يثبتها: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الإلقاءات الشيطانية، وطريق نسخها من وجه وجيه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم آياته بحكمته اهـ.

قال شارح الطحاوية ص١٠٥ ما نصه:

وقد ذكروا فروقًا بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، أن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول: ومن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً اهـ.

وقال صاحب الكواشف ص٤٠ ما نصه:

الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن لله رسلاً أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ومعادهم اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين فيجب الإيمان بمن سمي الله منهم في كتابه على التفصيل والإيمان جملة بأن لله رسلاً غيرهم وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ وعدد المذكورين في القرآن خمسة وعشرون.

وهم: آدم - ونوح - وإدريس - وصالح - وإبراهيم - وهود - ولوط - ويونس - وإسماعيل - وإسحاق - ويعقوب - ويوسف - وأيوب - وشعيب - وموسى - وهارون - واليسع - وذو الكفل - وداود - وزكريا - وسليمان - والياس - ويحيى - وعيسى - ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وموضوع الرسالة التبشير والإنذار قال تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾.

والحكمة في ذلك دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾.

وأفضل المرسلين أولو العزم وهم المذكورون في سورة الشورى قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ الآية وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وأفضل أولياء الله أنبياؤه، وأفضل أنبيائه المرسلون، وأفضل المرسلين أولوا العزم، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وصاحب لواء الحمد والحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقًا وأولهم بعثا ومن حين بعثه الله جعله الفاروق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون وليًا إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه ظاهرًا وباطنًا ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لا يتبعه فليس من أوليائه، بل من خالفه كان من أعدائه وأولياء الشيطان اهـ.

الواجب علينا للرسل والأشياء التي تجوز عليهم والأدلة على صدقهم وما أيدهم الله به: يجب علينا تصديقهم وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمروا به وبينوه بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل خلافه.

قال تعالى: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.

ويجب علينا الإيمان بأنهم معصومون من الكبائر وأما الصغائر فقد تقع منهم والكتاب والسنة يدلان على ذلك ولكن لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها.

فصل

قال محمد تقي الدين الهلالي: عندي عشرة من التفاسير وقد اختلفت أقوال المفسرين فبعضهم برأ الأنبياء من الذنوب وتأول ما ورد فيهم من نسبة الذنب إليهم من القرآن وبعضهم يفهم منه نسبة الذنب إليهم من القرآن وقد أعجبني كلام (ك) وها أنذا أنقله هنا.

قال (ك) في قوله تعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ** ﴾ في قصة داود وأوريا المنقولة من التوراة ما نصه:

قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روي ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمنه حق أيضًا.

قال محمد تقي الدين: وأنا أرجح مذهب القائلين بالتأويل وأعتقد عصمة الأنبياء كلهم من الذنوب الصغائر والكبائر وتسمية بعض أعمالهم ذنوبًا هي من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين والأدلة على ذلك كثيرة نذكر قليلا منها فمن ذلك حكم النبي ﷺ لبني أبيرق بالبراءة اجتهادا منه لما لم يقم دليل على أنهم سرقوا فعاتبه الله على ذلك وأمره بالاستغفار: انظر بسط هذه القصة في القسم الثاني من سبيل الرشاد في الباب الرابع من سورة النساء وكذلك قصة أسارى بدر وقد ذكرها الله تعالى في آخر سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** ﴾ فقد عاتب الله نبيه ﷺ على أخذ الفدية من أسارى بدر وقال له ﴿ **لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ مع أن النبي ﷺ استشار أصحابه كما أمره الله تعالى بقوله في سورة آل عمران ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ وذاك فيما لم يأمره فيه بشيء فأشار أكثرهم بأخذ الفدية من الأسارى وإطلاق سراحهم وهذا ليس فيه أي ذنب وكذلك قوله تعالى ﴿ **عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٣] فقد أمره الله تعالى بالعفو في غير ما آية قال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ المائدة: ١٣].

وآية التوبة نزلت في المنافقين لما عزم النبي ﷺ على الخروج لغزوة تبوك دعا الناس كلهم لذلك فاعتذر له المنافقون بأعذار كاذبة فقبل ظواهرهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله وهذا ليس يذنب ويقاس على هذا ما أشبهه وعندي دليل نظري هو حجة قاطعة وذلك أن الرسول لو جاز عليه ارتكاب الذنوب وقد أمرنا الله بإتباعه إتباعا مطلقا فإذا عمل ذنبا كنا مأمورين بإتباعه فيه ومنهيين عنه فيقع التناقض وهو الآمر بالشيء والنهي عنه في وقت واحد فكأن الله يقول: اتبعوه ولا تتبعوه فطريق السلامة هو تبرئة الأنبياء من الذنوب صغيرها وكبيرها والله أعلم أهـ.

وقال صاحب الكواشف ويجب احترامهم وأن لا يفرق بينهم ويجب الاهتداء بهديهم والإتتمار بأمرهم والكف عن ما نهوا عنه ويجب الاعتقاد أنهم أكمل الخلق علما وعملا وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقا وأن الله خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد وبرأهم من كل خلق رذيل ويجب محبتهم وتعظيمهم ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم، ويجوز في حقهم شرعا وعقلا النوم، والنكاح والأكل والشرب والجلوس والمشي والضحك وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام وتمتد إليهم الظلمة وينالهم الأذي وقد يقتل الأنبياء كما اخبر الله بذلك في كتابه بقوله سبحانه﴿ **وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ ومن الأدلة على ما ذكرنا أولا من أنه يجوز في حقهم أشياء قوله تعالى ﴿ **وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ وقال عز من قائل﴿ **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ** ﴾ وقال ﷺ: «لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء»، وكان ﷺ يمرض ويتألم ويشتكي وكان يصيبه الحر والبرد، والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه.

وأما الأدلة على صدق الرسل فكثيرة، أعظمها شهادة الله لهم بأنهم صادقون قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾.

وقال عز شأنه ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال عز من قال في إسماعيل عليه السلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ وقال في إبراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ إلى غير ذلك من الأدلة أهـ.

البحث في المعجزات

قال شارح الطحاوية:

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة ؟ وما أحسن ما قاله حسان.

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه – ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولابد أن يفعل أمورا (يبين بها صدقة) والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يتبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمرا: أحدهما صادق والآخر كاذب – لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين، عن

النبي ﷺ أنه قال: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلي البر وأن البر يهدي إلي الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلي الفجور إن الفجور يهدي إلي النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا. ولهذا قال تعالي: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ، وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٦] فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحيانًا يخبرون بشيء من المغيبات، ويكون صدقًا،

فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك، وليس بأنبياء، ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: « قد خبأت لك خبأ، فقال هو الدخ » قال له النبي ﷺ: أخسأ فلن تعدو قدرك يعني إنما أنت كاهن وقد قال للنبي ﷺ: « يأتيني صادق وكاذب » وقال: أرى عرشًا على الماء وذلك هو عرش الشيطان وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي: الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرًا له في العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علمًا يقينًا أنه ليس بشاعر ولا كاهن اهـ.

ثم قال صاحب الكواشف ص٤٢.

فهم أصدق الخلق على الإطلاق، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأيدهم بالدلائل الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة، فمن أعلام نبوته ﷺ القرآن العظيم الذي أعجز الورى كلهم، ومثل انشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب ومعراجه إلى السماء، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكفاية الله أعداءه وعصمته من الناس، وإجابة دعائه، وإعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة وتأثيره في تكثير الطعام والشراب.

قال الشيخ: ومثل أخبار أهل الكتاب قبله، وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهان والهواتف به، ومثل قصة الفيل، التي جعلها الله آية في عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه، وبعد مبعثه، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله من غير أن يعلمه إياها بشر اهـ.

وكما أيد الله موسى بالآيات البينات قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وكما أيد الله سائر رسله، مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة، وأخلاقهم الفاضلة الجميلة، من سلامة الفطرة والعفاف والكرم والشجاعة والعدل والنصح.

الواسطة بين الله وبين خلقه

قال محمد تقي الدين: رأيت كلام العلماء المتقدمين كشيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله فيه صعوبة على فهم عامة القراء فأردت أن أبينه لهم بعبارة سهلة اتخاذ الوسائط بين الله

وبين عباده على نوعين: الأول حق والثاني: باطل فالأول الذي هو حق يجب على كل مسلم أن يعتقد أن كل ما يأمر الله به عباده أو ينهاهم عنه أو يخبرهم به لا يمكن أن يعرف إلا من طريق الرسل وذلك كالأحكام الخمسة: الواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمباح وأخبار الأمم السابقة وأمور الآخرة كسؤال القبر والحساب والميزان والحوض والصراط ودخول الجنة ونعيمها ودخول النار وعذابها والملائكة فكل من أخبر بشيء من ذلك من غير طريق الكتاب والسنة يجب علينا أن نكذبه كالمتصوفة الذين يقولون: قال الله كذا وكذا وقلت له: كذا وكذا ورأيت النبي ﷺ يقظة وأخبرني بكذا وكذا أو غيره من الأنبياء أو يقول: إذا قال لك المحدث حدثني أبي عن جدي فقل له حدثني قلبي عن ربي فهذا كذب وضلال من صدقه فقد كذب الله ورسوله وإذا عرفت أيها القارئ هذه القاعدة فإنك تسلم من الوقوع في شباك الدجاجلة الذي يسلبون الدين والعقل والعرض والمال بمثل هذه الحيل.

والنوع الثاني:

اتخاذ وسائط بين الناس وبين الله في جلب الخير كنزول المطر وشفاء المرض وتنوير القلوب وإصلاحها وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ودفع الضرر فاتخاذ الوسائط بهذا المعنى شرك وكفر بالله ومن ذلك الاستغاثة عند الشدائد بالأنبياء والملائكة والصالحين ودعاؤهم والذبح والنذر لهم والحلف بأسمائهم والتوكل عليهم في جلب الخير ودفع الشر والاستمداد من أرواحهم والخوف والرجاء منهم وأعظم من ذلك اعتقاد أنهم يتصرفون في العالم وقد تقدم ذلك مبسوطًا في القسم الأول من هذا الكتاب وكل ما أخبر به الأنبياء والرسل عمومًا وخصوصًا أفضلهم وسيدهم محمدًا رسول الله ﷺ إذا ثبت بالكتاب أو بالسنة أو بأحدهما فهو حق يقبله العقل الصحيح ويفهمه ولا يتنافى معه أبدًا ومن شك فيه فهو فاسد العقل أو كذاب جاحد مكابر اهـ.

عدد الأنبياء والرسل والكتب المنزلة

ذكر الحافظ (ك) في تفسير الآية: ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ [النساء: ١٦٤] الآية: أحاديث كثيرة متناقضة فأكثر ما ذكر في عددهم أن

الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر. وفي حديث وخمسة عشر وفي حديث أن الرسل ثمانية آلاف وفي حديث آخر أنهم ألف. وأطول هذه الأحاديث حديث أبي ذر رواه أحمد وغيره والمختار التوقف في عددهم لما تقدم وللآية المذكورة وآية سورة غافر: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [غافر: ٧٨] ومن الآيتين نعلم يقينًا أن الله تعالى لم يقص على النبي ﷺ جميع الرسل فكيف يمكن أن يبين عددهم وهو لا يعلم إلا بعضهم وكذلك الكتب السماوية جاء في أحد تلك الأحاديث أن عددها مائة وأربعة ثم ذكر تفصيلها ونحن نكل علم عددها وتفصيلها إلى الله تعالى ونؤمن بجميع ما أنزله الله من الكتب إجمالاً وما ذكره الله لنا بالتفصيل أربعة التوراة لموسى والإنجيل لعيسى والزبور لداود والقرآن لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الإيمان بالبعث وما بعده

قال الله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠ ﴾ [التغابن: ٧-١٠].

قال (ك) يقول تعالى مخبرًا عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها

وحقيرها صغيرها وكبيرها: ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم.

وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده.

فالأولى في سورة يونس: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾.

والثانية في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية.

والثالثة: هي هذه الآية: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ يعني القرآن: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس هو من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار وكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار – قلت – وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة اهـ.

قال شارح الطحاوية ص٤٥٦.

وقوله: « ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان ».

(ش) الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه به في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفى — بين تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري.

والقرآن بين معاد النفس بعد الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: أنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخييل، وهذا كذب فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء — من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾. ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥] ولما قال إبليس اللعين: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ الآيتين ٨٠، ٨١ وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢] إلى آخر القصة، وقال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]: وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه: ١٥، ١٦]. بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] إلى قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ الآية [غافر: ٣٩] إلى قوله: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: احتجاج شارح الطحاوية على الفلاسفة الذين لا يصدقون الرسول ﷺ بآيات القرآن على أن الرسل السابقين جاؤوا بعقيدة البعث مفصلة كما جاء بها محمد ﷺ فيه نظر وقد نظرت في الكتب السابقة فلم أجد في التوراة ذكر يوم القيامة والجزاء الأخروي.

أما الأناجيل فالبعث موجود فيها ولكن علماء النصارى ينكرون بعث الأجساد والتمتع بالأكل والشرب والجماع في الجنة ويزعمون أن المؤمنين يشتغلون بالغناء والمعازف ويسبحون الله وكان الأستاذ بأول كالى مدير القسم الشرقي في جامعة بن بالبلاد الجرمانية يهيئ لنا رحلة في كل أسبوع أو أسبوعين للترويح على النفس والاستجمام وكان هو يقوم بنفقات السفر ما عدا الأكل والشرب وكل واحد ينفق على نفسه وكانت هذه الرحلة تشتمل على رجال ونساء من أهل العلم والأدب فهجم على أحدهم يومًا وقال مستهزئًا: كيف تدعون أن في الجنة أكلاً وشربًا واستمتاعًا بالنساء فقلت له هل يحشر الناس يوم القيامة ذكورًا فقط، أو إناثًا فقط، أو خناثي، أم يحشرون ذكورًا وإناثًا، كما كانوا في الدنيا ؟؟ فقال بل يحشرون ذكورًا وإناثًا فقلت: فما معنى كونهم ذكورًا وإناثًا إن لم يكن استمتاع أحد الجنسين بالآخر ؟ وما الحكمة في جعلهم ذكورًا وإناثًا ؟ ولماذا لم يجعلهم الله كالملائكة لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ؟ فضحك عليه الحاضرون ولم يستطع جوابًا، وقلت له، استمتاعكم أنتم في الجنة هو أن يعطي كل واحد عودًا يلهوا به، وهذا أمر ممل فإن الإنسان لا يتنعم بالضرب على العود إلى الأبد بدون انقطاع فجنتنا أحسن من جنتكم فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فاستحسنوا كلهم هذا الكلام وبهت هذا الطاعن وبطل طعنه وكان ذلك في سنة ١٩٣٧ بتاريخ النصارى في جبال غربي البلاد الجرمانية راين لند أي بلاد راين وهو نهر مشهور اهـ.

رجوع إلى البحث في المعاد

قال شارح الطحاوية ص٤٠١:

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة، لهم في المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين:

منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد.

ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع.

فأورد عليهم، الإنسان الذي يأكله حيوان، وذلك الحيوان أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا، لم تعد من هذا وأورد عليهم:

أن الإنسان يتحلل دائما، فماذا الذي يعاد ؟ هو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة، وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض، فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل ترابا ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، ثم صار عظاما ولحما، ثم أنشأه خلقا سويا، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب. وفي حديث آخر: أن السماء تمطر مطرا كمنى الرجال، ينبتون في القبور كما ينبت النبات.

ومضى إلى أن قال: ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا، علم أن هذا هو ذاك، مع أنه دائما في تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوانات والنبات، فمن رأى شجرة وهي صغيرة، ثم رآه كبيرة، قال: هذه تلك، وليس صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة، حتى يقال أن الصفات هي المغيرة، لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها

فإنهم يدخلونها على صورة آدم.

ثم قال في النشأة الأخرى: وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات، أ هـ.

جزاء الأعمال

قال تعالى: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٣] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

قال المصنف في كتابه فتح الرحمن في تفسير أم القرآن: ما نصه ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قرئ في السبع بألف بعد الميم وبدونها.

فالأول من الملك بكسر الميم كما قال تعالى في سورة الانفطار: ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾.

والثاني: من الملك بضم الميم وكلاهما ثابت لله تعالى، قال البيضاوي: أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له مجرى المفعول به على الإتباع كقولهم (يا سارق الليلة أهل الدار) ومعناه مالك لأمور الدين أو له في هذا اليوم على وجه الاستمرار.

قال محمد تقي الدين: والإضافة هنا بمعنى كما في قوله تعالى ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والدين الجزاء، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [النور: ٢٥] قال الحماسي:

فلما صرح الشر ... فأمسى وهو عريان

ولم يبقى سوى العدوا ... ن دناهم كما دانوا

وفي الحديث (كما تدين تدان) أخرجه بن عدي في الكامل عن ابن عمر مرفوعا وفي فتح البيان: واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفي الشرع ما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا مطلق الوقت أهـ. وإنما أضيف ملكه سبحانه ليوم القيامة، مع أنه يملك الدنيا والآخرة وهو المتصرف فيهما وحده،

لأن في الدنيا مالكين وملوكا على سبيل الحدوث والنقصان.

وهم مملوكون لله، أما في ذلك اليوم فلا تملك نفس شيئا أصلا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال المحقق القنوجي في فتح البيان في تفسير آية آل عمران: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾.

هو رد عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب باستعظام ما سيقع لهم وتهويل لما يحيق بهم من الأهوال أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في وقوعه فإنهم يقعون لا محالة فيه ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب وقال (ج) المعنى لما يحدث في يوم ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم ما كسبت « أي جزاء ما كسبت من خير وشر على حذف المضاف » ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بزيادة سيئة ولا نقص حسنة من أعمالهم والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس **وقال (ك):** في تفسير آية سورة النور وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ قال ابن عباس: « دينهم » أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم وكذا قال غير واحد، ثم أن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت لاسم الجلالة، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمُ ﴾ وقوله ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أي وعده ووعيده، وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه أهـ.

وقال (ك) في تفسير آية سورة غافر: وقوله جلت عظمته ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة أهـ.

العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٦-١٥] إلى قوله تعالى: ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي أنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملا « فملاقيه » ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، ويشهد لذلك ما رواه أبو داوود الطيالسي بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ قال جبريل يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه: ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ربك أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلا القولين متلازم قال العوفي عن ابن عباس ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول تعمل عملا تلقى الله به خيرا كان أو شرا ثم قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي: سهلا بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، وروى: أحم، ق، ت، ن، ج. عن عائشة قالت: قال رسول ﷺ من نوقش الحساب عذب، قالت فقلت أفليس قال الله تعالى فسوف يحاسب حسابا يسيرا ؟ قال: ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب.

وروى الإمام أحمد بسنده عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: « اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا » فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: « أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه إنه من نوقش الحساب يا عائشة

يومئذ هلك » صحيح على شرط مسلم ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة، قاله قتادة والضحاك مسرورا) أي فرحا مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل: وقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثني يده إلى ورائه ويعطي كتابه بها كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ « أي خسارا وهلاكا » ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي فرحا لا يفكر في العواقب ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته قال ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحور هو الرجوع قال الله تعالى: ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني بل سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه كان بصيرا أي عليما خبيرًا.

فصل

قال محمد تقي الدين: سؤال النبي ﷺ ربه عز وجل: أن يحاسبه حسابا يسيرًا؛ تعبد وتذلل لله تعالى لأن العبودية أشرف المقامات ولذلك يسمى الله سبحانه نبيه وحبيبه وخليله محمدا ﷺ عندما يذكره في أشرف المقامات « عبدا » كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال تعالى في أول الإسراء: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وقال تعالى في سورة النجم: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ وقال تعالى في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وقال النبي ﷺ في دعائه: « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك » الحديث. وفي ذلك الدعاء أيضا تعليم لأمته وإلا فهو مقطوع له بأعلى درجات الجنة لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وعسى من الله واجبة، روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يسمع النداء، اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي

وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة » فقد ثبت بالآية والحديث أن المقام المحمود أعلى الدرجات وقد وعد الله خير خلقه محمدا ﷺ ذلك المقام. والله لا يخلف الميعاد، ومع ذلك سأل الله تعالى أن يجعل حسابه يسيرا تعبدا وشرع ذلك لأمته دعاء، والتجانيون لا يمكنهم أن يسألوا الله تعالى أن يحاسبهم حسابا يسيرا لأنهم زعموا أن النبي ﷺ ضمن لشيخهم أنهم لا يحاسبون أصلاً لا حسابًا يسيرًا ولا حسابًا عسيرًا بل يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب هم وأولادهم وأزواجهم ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا انظر كتابي « الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية ».

قال (ك) قوله تعالى: ﴿ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا** ﴾ يحتمل أنهم يقومون بين يدي الله تعالى صفًا أو صفوفًا، وقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ولهذا قال سبحانه: ﴿ **بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا** ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن، وقوله تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير: ﴿ **فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة: ﴿ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ **مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** ﴾ أي لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا إلا أحصاه وضبطه وحفظه، وروى الطبراني بإسناده إلى سعد بن جنادة: « قال لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفرًا من الأرض ليس فيه شيء. فقال النبي ﷺ أجمعوا من وجد عودًا فليأت به، ومن وجد حطبًا أو شيئًا فليأت به، قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا، فقال النبي ﷺ أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة. وقوله: ﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا** ﴾ أي من خير وشر كما قال تعالى: ﴿ **يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم،

وعن شعبة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة ».

صفة حوض النبي ﷺ

قال شارح الطحاوية ما نصه: « الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًا، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمى بـ « البداية والنهاية ». فمنها: ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وأن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: « ليردن على ناس من أصحابي، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول أصحابي، فيقول، لا تدري ما أحدثوا بعدك » رواه مسلم، وروي الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: « أغفي رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسمًا، أما قال لهم، وأما قالوا له: لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ: « إنه أنزلت على آنفًا سورة، فقرأ: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ حتى ختمها ثم قال لهم، هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يارب، أنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » ورواه مسلم ولفظه: « هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، والباقي مثله، ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه يمنع منه، أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ومثل هؤلاء لا يجازون الصراط، وروي البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أنا فرطكم على الحوض » والفرط الذي يسبق إلى الماء. وروي البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري، قال. قال رسول الله ﷺ: إني فرطكم على الحوض » من مر على شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم. قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت، نعم فقال أشهد على أبي سعيد الخدري، سمعته وهو يزيد،

فأقول: « إنهم من أمتي » فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: « سحقا سحقا لمن غير بعدي » سحقًا أي بعدًا. والذي يتخلص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء، وقد ورد في أحاديث أن لكل نبي حوضًا، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا ».

المرور على الصراط

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾.

قال صاحب تيسير العلي القدير في اختصار ابن كثير ما نصه: « روي الإمام أحمد عن أبي سمية قال اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود فقال يردونها جميعًا، وقال سليمان بن مرة، يدخلونها جميعًا وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا.

روي الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾ قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس كلهم يصدون عنها بأعمالهم » ورواه الترمذي. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم، وقال السدي عن مرة بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ **كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾ قال قسما واجبًا وقال مجاهد: حتما قال قضاء وكذا قال ابن جريح وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا** ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة

ذوي المعاصي. نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم قدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون، والمؤمنون فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى إنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

قال شارح الطحاوية وقوله: والصراط، أي: ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة: أن رسول الله ﷺ سئل، أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال: « هم في الظلمة دون الجسر » وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم. وروي البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: « يجمع الله الناس يوم القيامة » إلى أن قال: « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطي دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه وإذا طفيء قام، قال فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض، مزلة فيقال لهم، امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كإنقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملا، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتعلق يد وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار ثم يخلصون فإذا خلصوا قالوا الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد، الحديث واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ الآية من سورة مريم.

ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ الآية من سورة مريم، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: « والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة. قالت حفصة فقلت يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ الآية من سورة مريم، فقال ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ الآية من سورة مريم أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ هود ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾ هود ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ هود، ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط وروي الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: « علم الناس سنتي وأن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن في دين الله حدثًا برأيك ».

فصل

قال محمد تقي الدين: لو كان أهل الرأي يعقلون لكان لهم في هذا الحديث ردع وزجر عن اتباع الرأي ومخالفة السنة في الفروع والأصول. فأي عاقل يقبل على عقيدة أو عمل أو ترك سنة يكون له سببًا في أن يوقف على الصراط ولو لم يسقط في النار فسبحان من طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، لكن ابن الجوزي قال في هذا الحديث أنه موضوع لكن معناه صحيح.

الإيمان بالميزان

قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا

تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال صاحب تيسير العلي القدير في اختصار ابن كثير ما نصه: وقوله تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ** ﴾ أي نضع الموازين العدل ليوم القيامة و، والميزان واحد إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه وقوله تعالى: ﴿ **فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم » روي الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول، قال رسول الله ﷺ: « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر ثم يقول، أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون قال: لا يارب قال: أفلك عذر أو حسنة قال: فبهت الرجل فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقته فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله فيقول أحضروه، فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تظلم، قال فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع (بسم الله الرحمن الرحيم) ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب.

قال محمد تقي الدين: وقد ذكر الله تعالى وزن أعمال العباد في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما في سورة الأعراف وسورة المؤمنين وسورة القارعة، وثبتت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في وزن الأعمال ومن استبعد وزن الأعمال من سفهاء المتفلسفة قال إنها معان والمعاني لا توصف بالخفة والثقل ولا توضع في الميزان فهو من الجهال الواقعين في أسر العادات والمألوفات الذين يقيسون عالم الغيب على عالم الشهادة وأمور الآخرة على أمور الدنيا وهؤلاء سفهاء لا يعقلون فإن استحالة المأكولات والمشروبات المختلفة الأنواع

في معدة الإنسان إلى لحم ودم وعصب وعظام وتعويضها ما فقده الجسم من ذلك لهو أعجب بكثير من وزن الأعمال انظر شرح الطحاوية.

الإيمان بالجنة والنار

وفيه مباحث:

المبحث الأول: في إثبات أنهما موجودتان الآن والرد على من خالف في ذلك قال الحافظ ابن القيم في حادي الأرواح ما نصه: الباب الأول في بيان وجود الجنة الآن: « لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف وبما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكونا الآن مخلوقتين وقالت بل الله ينشئهما يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة فيما يفعله الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعاله فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث فإنها تصير معطلة مددًا متطاولة ليس فيها سكانها ومن المعلوم أن ملكًا لو اتخذ دارًا وأعد فيها ألوان الأطعمة والآلات والمصالح وعطلها من الناس ولم يمكنهم من دخولها قرونًا متطاولة لم يكن ما فعله واقعًا على وجه الحكمة ووجد العقلاء سبيلاً إلى الاعتراض عليه فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وشبهوا أفعاله بأفعالهم وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها والتزموا لها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء ولهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون فيها.

ثم نقل ابن القيم رحمه الله عن أبي الحسن الأشعري رحمه الله من كتابه « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة، نقل كلامًا كثيرًا في صفات الله تعالى مطابقًا لعقيدة الصحابة والتابعين ومبطلاً لعقيدة الأشعرية المتأخرين، نفاة الصفات المعطلين ولم أنقل كلامه اكتفاء بما نقلته فيما مضى من هذا الكتاب بواسطة

الحافظ ابن القيم من كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري رحمه الله واقتصرت من ذلك على ما يأتي « ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان ».

ثم عقد ابن القيم رحمه الله سبعة أبواب في الخصومات بين الطوائف في جنة الخلد هل هي التي كان فيها آدم وحواء أم هي جنة أخرى وهذا الكتاب كتاب وعظ لا تناسبه الخصومات لأنه يقرأ على العامة وطلبة العلم جميعًا والخصومات تفسد الوعظ وتشوش الأفكار.

المبحث الثاني: في رد شبهة من احتج بقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ قال الذين قل نصيبهم من فهم الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح لو كانت الجنة والنار موجودتين الآن لفنيتا عندما يفني كل شيء لقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ آخر سورة القصص، وقد أجاب الإمام ابن القيم رحمه الله عن ذلك بما نصه وأما احتجاجكم لقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ فإنما أوتيتم من عدم فهمكم معنى الآية واحتجاجكم على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية قال البخاري في صحيحة يقال كل شيء هالك إلا وجه إلا ملكه ويقال إلا ما أريد به وجهه وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب لأنه سقف الجنة والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد وأما قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ فقالت الملائكة هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال كل شيء هالك يعني ميت إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت.

ثم قال عن الإمام أحمد وهو قول أهل السنة جميعًا: « وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيها خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما ولا تفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدًا. فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل كل شيء هالك إلا وجهه وبنحو هذا من متشابه

القرآن قيل له كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتنا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة ولا عند النفخة ولا يمتن أبدًا لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل.

« المبحث الثالث: في ذكر شيء من الأدلة التي تثبت عقيدة أهل السنة ».

البرهان الأول: حديث البراء بن عازب الطويل المتقدم وفيه: « فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة والبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها وذكر الحديث ».

الثاني: قال ابن القيم: وقد دل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى** ﴾ وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأي عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء وفي آخره ثم انطلق بي جبريل حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك.

قال ابن الأثير في النهاية ما نصه: في صفة الجنة « فيها جنابذ من لؤلؤ » الجنابذ جمع جنبذة وهي القبة ».

الثالث: ثم قال ابن القيم « وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة.

الرابع: وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فذكر الحديث إلى أن قالت ثم قام فخطب الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة » وقال رسول الله ﷺ: « رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به حتى لقد رأيتني آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتموني تقدمت ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا

حين رأيتموني تأخرت ».

الخامس: وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ في صلاة الخسوف قال قد دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ودنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا معهم فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هرة قلت ما شأن هذه قالوا حبستها حتى ماتت جوعًا لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض.

الاختلاف في فناء النار بين أهل السنة

ذكر شارح الطحاوية رحمه الله في هذه المسألة ثمانية أقوال: ستة منها خارجة عن عقيدة أهل السنة فلم أشأ أن أطيل بذكرها والسابع والثامن كل واحد منهما أخذ به جماعة من أهل السنة وهذا نص كلامه: السابع، أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ (يعني الطحاوي) رحمه الله، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

هذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما – فمن أدلة القول الأول منهما قوله تعالى: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]. ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢٣]. وهذا القول، أعني القول بفناء النار دون الجنة – منقول عن عمر، وابن مسعود وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم. وقد روي عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر، أنه قال: ولو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه » ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢٣]. قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: « لما قضى الله الخلق، كتب كتابًا، فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي، وفي رواية « تغلب غضبي ». رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة،

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه، ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]. و ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية ٢٦ من سورة هود. ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ الآية ٥٥ من سورة الحج، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. فلابد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته، وقد ثبت في « الصحيح » تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقًا يعذبهم أبد الآباد عذابًا سرمدًا لا نهاية له، وما أنه يخلق خلقًا ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيمًا سرمدًا، فمن مقتضى الحكمة، والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض. قالوا وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام — كله حق مسلم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها، قوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤٠]. ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠]. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البينة: ٨]، ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]. ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ﴿ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]. ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥]. أي مقيمًا لازمًا، وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال، لا إله إلا الله. وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما.

قال محمد تقي الدين: لم يصرح شارح الطحاوية بترجيح لأحد القولين على الآخر لكني أفهم من كلامه أنه يميل إلى ترجيح جانب الرحمة على جانب الغضب وهذا هو الذي يفهم من الحديث الصحيح والظن بالله جميل أنه لا يعاقب على ذنب محدود عقابًا غير محدود على أن الأدلة التي ذكرها للقائلين بالقول السابع قوية، ومنها ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾.

الركن السادس الإيمان بالقدر خيره وشره كل ذلك من الله تعالى قال الإمام محمد صديق حسن القنوجى في فتح البيان عند قوله تعالي في سورة القمر ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ ما نصه: أي كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبسًا بقدر قدره وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه والقدر التقدير والعامة على نصب كل بالاشتغال وقرئ بالرفع وقد رجح الناس النصب بل أوجبه بعضهم قال لأن الرفع يوهم ما لا يجوز على وقاعد أهل السنة قال أبو البقاء وإنما كان النصب أولى لدلالته على عموم الخلق والرفع لا يدل على عمومه بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر فخلقنا تأكيد وتفسير لخلقنا المضمر الناصب لكل شيء فهذا اللفظ عام يعم جميع المخلوقات وللسمين هنا كلام مبسوط لا نطيل بذكره. وأخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ كل شيء بقدر حتى العجز والكيس. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة أخرجه مسلم. وعن جابر قال. قال رسول الله ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر أخرجه الترمذي واستغربه وفي الباب أحاديث بين صحيح منها وضعيف قال الخطابي وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من إكساب العباد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر يقال قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله: ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** ﴾ أي خلقهن قال النووي أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها الله.

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وأنها مستأنفة العلم أي أنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علوًا كبيرًا انتهى. وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل العقد والحل من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى وقد قرر ذلك أئمة السنة أحسن تقرير بدلائله القطعية السمعية والعقلية ليس هذا موضع بسطه والله أعلم.

قال القاسمي في تفسير آيتي النساء: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا، مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا** ﴾ ما نصه: ولما حكي تعالى عن المنافقين كونهم متثاقلين عن الجهاد خائفين من الموت، غير راغبين في سعادة الآخرة، أتبع ذلك بخلة لهم شفع، بقوله سبحانه: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ** ﴾ كخصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحوها: ﴿ **يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ** ﴾ أي من قبله لما علم فينا الخير ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ** ﴾، كقحط وجدب، وغلاء السعر، ونقص في الزروع والثمار، وموت أولاد ونتاج، ونحو ذلك ﴿ **يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ** ﴾ يعنون من شؤمك كما قال تعالى في قوم فرعون ﴿ **فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ** ﴾ وفي قوم صالح ﴿ **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ** ﴾.

قال أبو السعود: « فأمر النبي ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجة ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال. إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل: ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ** ﴾ أي كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى، خلقا وإيجادًا، من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منها بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً. ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة، كما سيأتي بيانه، فهذا الجواب المجمل في معنى ما قيل، ردًا على أسلافهم من قوله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ** ﴾ أي إنما سبب خيرهم وشرهم ـ أو سبب إصابة السيئة التي هي ذنوبهم، عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به ﴿ **فَمَا**

﴿ لِهَـٰؤُلاء الْقَوْمِ ﴾ يعني المنافقين ﴿ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ أي قولا. والجملة اعتراضية مسوقة لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم إذ لو فقهوا شيئًا لعلموا مما يوعظون به، أن الله هو القابض الباسط وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد.

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ أي نعمة ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أي فمن نعمته وتفضله ابتداء ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ أي بلية ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي من شؤمها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالي، نازلة من عنده عقوبة، كقوله تعالي ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ روي ابن عساكر عن البراء عن النبي ﷺ قال: ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر.

وروي الترمذي عن أبي موسي الأشعري عن النبي ﷺ قال: لا يصيب عبدا نكثة فما فوقها أو دونها، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال وقرأ ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ لطيفة الخطاب في (أصابك) عام لكل من يقف عليه لا للنبي ﷺ كقوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ويدخل فيه المذكورون دخولا أوليا. وجوز أن يكون الخطاب له ﷺ كما قبله وبعده، لكن لا لبيان حاله ﷺ بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم ، والأشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة، قرره أبو السعود قال بعض المفسرين: وثمرة الآية رد التطير والتشاؤم.

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ بيان لجلالة منصبه ﷺ ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة والسلام، بناءًا على جهلهم بشأنه الجليل، وتعريف (الناس) للاستغراق، أفاده أبو السعود. أي فمن أين يتصور لك الشؤم وقد أرسلت داعيًا العموم إلى الخيرات، فأنت منشأ كل خير ورحمة ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَـهِيدًا ﴾ أي:

على رسالتك وصدقك، بإظهار المعجزات على يديك، أي: وإذ ثبتت رسالتك، فاليمن في طاعتك، والشؤم في مخالفتك.

فصل

قال محمد تقي الدين: قال العلماء لما كان الجزاء من جنس العمل كان لكل حسنة جزاءان ولكل سيئة جزاءان فمن تصدق بصدقة وقبلها الله منه جزاه الله عليها حسنتين.

الأولى: أن تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار كما جاء في الحديث: « ويكتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والحسنة الثانية وهي الجزاء الثاني أن الله يوفقه بسببها إلى عمل حسنة أخرى وهكذا دواليك وكذلك السيئة يجزي عليها سيئتين. الأولى: أن الله يكتبها عليه سيئة والثانية: أنها تجره إلى سيئة أخرى وهكذا دواليك « لخصت هذا من شرح الطحاوية ».

تنزيه الله تعالى عن الظلم

نزه الله تعالى نفسه عن الظلم في آيات كثيرة قال تعالى في الآية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال تعالى في سورة هود: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** ﴾ [هود: ١٠١]. ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٢]. ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قال صاحب التيسير: « يخبر تعالى أنه لا يظلم أحدًا يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ** ﴾ وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث

الشفاعة الطويل وفيه: « فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار وفي لفظ: أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ روي ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال قلت: « يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: « سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول: « إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية: ﴿ مَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي إذا أهلكناهم: ﴿ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أي أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم من إهلاكهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي غير تخسير وذلك أنها سبب هلاكهم ودمارهم وخسران الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾.

يقول تعالى كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، وكذلك نفعل بأشباههم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا – إلى أن قال – يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله تبارك وتعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدة كما قال تعالى: ﴿ **مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾. وقال جل وعلا: ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير ﴿ **فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ **مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** ﴾ أي لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا إلا أحصاه وضبطه وحفظه، وروي الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال: « لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفرًا من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: « اجمعوا من وجد عودًا فليأت به، ومن وجد حطبًا أو شيئًا فليأت به » قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا، فقال النبي ﷺ: « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه ».

وقوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا** ﴾ أي من خير أو شر كما قال تعالى: ﴿ **يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

عن شعبة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة ».

قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ** ﴾ الآية.

ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وإتيان الآخرة والرجوع إليه ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته فقال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين، لليلتين

خلتا من ربيع الأول، رواه بن أبي حاتم، وقد رواه بن مردوية عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ قال ابن جريج يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ومات يوم الاثنين — رواه ابن جرير.

قال شارح الطحاوية رحمه الله: « الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطًا بين قول القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلمًا وقبيحًا يكون منه ظلمًا وقبيحًا، كما تقول القدرية والمعتزلة ونحوهم فإن ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم، وهو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون ؟ وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقول من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم بل كان ما كان ممكنا فهو منه لو فعله — عدل، إذ الظلم إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك — فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]. وقوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] يدل على نقيض هذا القول.

وأيضًا فإن قوله تعالى: ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]. قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم، أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء: ١٥].

وأيضًا: فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿ فَلا يَخَافُ ﴾ علم أنه ممكن مقدور عليه، وكذا قوله: ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [ق: ٢٨]، إلى قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفي ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهًا عن شيء من الأفعال أصلاً، ولا مقدسًا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له، والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء

والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم. وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥٥] - فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل - وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]. إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيئ قبيح، وهو ما ينزه الرب عنه.

انتفاع الميت بعمل الحي

قال محمد تقي الدين: عفا الله عنه ووفقه للصواب:

رب وفقني فلا أعدل عن سنن الماضيين في خير سنن

ترددت في إثبات هذه المسألة في هذا الكتاب لأنها ليست من الأسماء والصفات وقد أثبتها الإمام الطحاوي في عقيدته. وأهل هذا الزمان في أشد الحاجة إلى معرفة الحق في هذه المسألة قال الله تعالى في سورة الحشر: ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالى في آخر سورة نوح: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤]. وقال تعالى في سورة القتال: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [: ١٩].

وتفسير آية الحشر — قال صاحب التيسير: وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هؤلاء القسم الثالث ممن يستحق فقرائهم من مال الفيء.

وهم المهاجرون ثم الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كما قال في آية براءة ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً ﴾ أي بغضًا وحسدًا ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة، أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ الآية ثم قال هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ حتى بلغ للفقراء. ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾. ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرد حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه.

قال محمد تقي الدين: إن المراد هنا دعاء الأحياء للأموات مشروع وينفعهم الله به إذا ماتوا موحدين وقد أجمع على ذلك أهل السنة.

تفسير آية نوح ثم قال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ أي لكل من دخل بيته مؤمنًا. روي الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي » ورواه أبو داود والترمذي وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ هذا دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، أما الظالمون فلا تزدهم إلا خسارًا في الدنيا والآخرة.

تفسير آية الإسراء: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ أي ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما. قال ابن عباس ثم أنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾.

قال محمد تقي الدين: وفيه أيضًا دليل على مشروعية الدعاء ونفعه للوالدين في حال حياتهما وبعد مماتهما.

قال الإمام محمد صديق حسن القنوجي في تفسير آية القتال ما نصه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ أي إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا رب سواه والمعنى أثبت على ذلك واستمر عليه ودم على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فإنه النافع يوم القيامة لأنه ﷺ قد كان عالمًا بأنه لا إله إلا الله قبل هذا. ويدل عليه قوله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة». رواه مسلم.

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ أي استغفر الله أن يقع منك ذنب أو استغفر الله ليعصمك أو استغفره مما ربما يصدر من ترك الأولى. قال القاضي عياض إن المراد به الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه فإذا فتر وغفل عد ذلك ذنبًا واستغفر منه.

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فإن المراد به استغفراه لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم وهذا إكرام من الله عز وجل لهذه الأمة حيث أمر نبيه ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم إن شاء الله تعالى عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الاستغفار ثم قرأ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ الآية رواه الطبراني. وعن أبي هريرة في قوله واستغفر لذنبك قال رسول الله ﷺ إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة رواه عبد الرزاق والترمذي وصححه، وأصله في البخاري وفي رواية أكثر من سبعين.

وعن عبد الله بن سرجس قال أتيت النبي ﷺ فأكلت معه من طعام فقلت غفر الله لك يا رسول الله قال ولك فقيل استغفر لك يا رسول الله قال نعم وقرأ واستغفر لذنبك

وللمؤمنين والمؤمنات. أخرجه مسلم وأحمد والترمذي وروي مسلم عن الأغر المزني قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة وللعلماء في هذا الغين كلام طويل لا يسعه هذا الموضع قال ابن الأثير في النهاية: « الغين: الغيم. وغينت السماء تغان: إذا أطبق عليها الغيم. وقيل: الغين: شجر ملتف ».

أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا كان مشغولاً بالله تعالى، فإن عرض له وقتا ما عارض بشرى يشغله من أمور الملة ومصالحها عد ذلك ذنبًا وتقصيرًا فيفزع إلى الاستغفار، انتهى.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا في أعمالكم ومعايشكم ومتاجركم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في الدار الآخرة قاله ابن عباس ؟

قال محمد تقي الدين: وهذا أيضًا يدل بوضوح على أن الدعاء للميت مشروع ونافع له: « وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » رواه مسلم وقد أجمع المسلمون على الصلاة على الجنازة وفيها الدعاء للميت ولغيره من الأحياء والأموات وأما انتفاع الميت بالصدقة: « فعن عائشة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: « إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت فهل لها من أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: « نعم » متفق عليه – وكذلك ينتفع الميت بالحج عنه إذا وقع من قريب له فقد روي الجماعة واللفظ للبخاري عن ابن عباس، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت أن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال: نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول لبيك عن شبرمة قال من شبرمة ؟ قال أخ لي أو قريب لي قال حججت عن نفسك قال لا، قال حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة » وأما حج البعيد بأجرة أو بغيرها فلم يرد فيه شيء عن النبي ﷺ فيما نعلم ولذلك نعتبره غير جائز ولا يجوز لأحد أن يثبته بالقياس لأن القياس لا يدخل في العبادات لأنها توقيفية محدودة وقد بلغها النبي ﷺ فلا يجوز لنا أن نزيد فيها شيئًا.

أما الصوم عن الميت فقد وردت فيه أحاديث أذكر بعضها هنا الأول: قال أبو داود بسنده إلى عائشة أن النبي ﷺ قال: من مات وعليه صيام صام عنه وليه، قال أبو داود: هذا في النذر وهو قول أحمد بن حنبل والثاني: عن ابن عباس قال إذا مرض الرجل في رمضان ثم مات ولم يصح ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عليه قضاء وإن نذر نذرًا قضي عنه وليه » رواه أبو داود. والثالث: « في الصحيحين عن ابن عباس: « جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها ؟ فقال أرأيت لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدى ذلك عنها ؟ قالت: نعم، قال فصومي عن أمك » هذا لفظ مسلم ولفظ البخاري نحوه وفي الصحيحين عنه أيضًا: « أن امرأة جاءت فقالت: يا رسول الله إن أختي ماتت وعليها صيام شهرين متتابعين » وذكر الحديث بنحوه.

قال محمد تقي الدين: نفهم من هذه الأحاديث أن الميت إذا مات وعليه صيام نذر صامه عنه وليه وإن كان عليه صيام رمضان فقد قال ابن عباس يطعم عنه ولم يرفع ذلك إلى النبي ﷺ فلا حجة فيه وكذلك لو مات الميت وعليه دين فأسقطه عنه صاحب الدين أو قضاه عنه شخص آخر أو كانت لأحد عليه مظلمة فعفا عنه المظلوم نفعه ذلك.

الأمور المبتدعة التي لا تنفع الميت

أولها: ما يسمى عند المغاربة بعشاء القبر « عن عبد الله بن جعفر قال لما جاء نعي جعفر حين قتل قال رسول الله ﷺ اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد أتاهم ما يشغلهم أخرجه الخمسة إلا النسائي.

قال الشيخ أحمد في حاشيته على بلوغ المرام ما نصه: قوله اصنعوا لآل جعفر طعامًا إلخ الحديث حسنه الترمذي وصححه ابن السكن وأخرجه أيضًا أحمد وابن ماجه والطبراني من حديث أسماء بنت عميس وهي والدة عبد الله.

وفي الحديث مشروعية القيام بمؤونة أهل الميت مما يحتاجون إليه من الطعام لاشتغالهم عن أنفسهم بما دهمهم من المصيبة قال الترمذي وقد كان بعض أهل العلم يستحب أن يوجه إلى أهل الميت بشيء لشغلهم بالمصيبة وهو قول الشافعي وأما اجتماع الناس عند أهل الميت وأكل الطعام عندهم فهو من مراسم الجاهلية ويعد ذلك بعد الإسلام من أنواع النياحة

المنهي عنها لما في ذلك من مخالفة للسنة لأنهم مأمورون بأن يضعوا لأهل الميت طعامًا فخالفوا ذلك وكلفوهم صنعة الطعام لغيرهم أخرج أحمد وابن ماجة عن جرير بن عبد الله البجلي بسند صحيح قال كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة ؟

وجرير بن عبد الله بن جابر البجلي صحابي مشهور فقوله كنا نعد في حكم الحديث المرفوع فيا عجبا للعلماء الذين لا ينهون الناس عما شاع في هذا الزمان من الاجتماع عند أهل الميت وأكل الطعام عندهم.

ثانيها: قراءة القرآن وإهداء ثوابها للأموات بأجرة أو بغير أجرة قال تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ [النجم: ٣٩].

قال صاحب التيسير في اختصار ابن كثير ما نصه: وقوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فمجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به » فهذه الثلاثة في الحقيقة، هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » والصدقة كالوقف ونحوه وهي من آثار عمله ووقفه وقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾ الآية، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله وثبت في الصحيح ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ».

قال محمد تقي الدين: لقد صدق الحافظ ابن كثير وصدق الإمام الشافعي وبر في إبطال بدعة إهداء ثواب القرآن إلى الأموات فإن الإنسان لا يهدي إلا ما يملك وثوابه القرآن لا يملكه الإنسان لأنه لا يعلم أتقبل منه أم لم يتقبل هذا إذا قرأه لله وأما إذا قرأه بأجرة فلا ثواب له قطعًا. قال البخاري: « باب إثم من راآى بقراءة القرآن، أو تأكل به، أو فخر به، ثم روي بسنده إلى على بن أبي طالب قال: « سمعت النبي ﷺ يقول: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة » ثم روي بطريق مالك عن أبي سعيد الخدري قال: « سمعت رسول الله ﷺ يقول يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية، الحديث قال الحافظ بن حجر في فتح الباري، معنى « تأكل » طلب الأكل بقراءة القرآن، قوله « سفهاء الأحلام » أي العقول، وقوله: « لا يجاوز حناجرهم » معناه أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم لأن ما وقف عند الحلقوم فلم يتجاوزه لا يصل إلى القلب، ثم قال: « ومناسبة هذين الحديثين للترجمة أن القراءة إذا كانت لغير الله فهي للرياء أو للتأكل به ونحو ذلك ».

ثم قال الحافظ: روي أبو عبيد « في فضائل القرآن » من وجه آخر عن أبي سعيد وصحح الحاكم رفعه: « تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله ».

ثم قال وأخرج أحمد وأبو يعلي من حديث عبد الرحمن بن شبل رفعه: « اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به » الحديث وسنده قوي.

وقال في الجامع الصغير: « اقرؤوا القرآن وابتغوا به الله من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه » رواه أحمد وأبو داود عن جابر، انتهى ومعنى « يتعجلونه » أي يطلبون به أجر دنيويًا كالمال والجاه فيكون حجة عليهم ويكون شاهدًا عليهم وسائقًا لهم إلى النار يوم القيامة نسأل الله العافية ومن الأدلة على أن قراءة القرآن

وإهداء ثوابها إلى الأموات بدعة باطلة محدثة ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه مر بقبرين يعذبان وما يعذبان في كبير بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله فدعا بجريدة خضراء فشقها شقين وجعل أحدهما على أحد القبرين وجعل الشق الثاني على القبر الثاني وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا اهـ.

قال محمد تقي الدين: ولو كانت قراءة القرآن للأموات مشروعة ونافعة لقرأ النبي ﷺ شيئًا من القرآن وجعل ثوابه لهما ولاقتدى به أصحابه ففعلوا مثل ذلك. وقد كان النبي ﷺ يزور القبور كثيرًا ولم يقرأ على أهلها شيئًا من القرآن مع أن قراءته لا حد لثوابها بل كان يدعو لهم ويعلم أصحابه إذا رأوا القبور ذلك الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن وقد تقدم لفظه ومن الأدلة على أن قراءة القرآن وجعل ثوابها للأموات غير مشروعة، حديث أبي هريرة المتقدم: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث من ولد صالح يدعو له » الحديث، ولم يقل: « يقرأ عليه القرآن أو ادعوا المتأكلين بالقرآن ويعطيهم أجرة ليقرؤوا ختمة من القرآن ويجعلوا ثوابها لوالده كما يفعل أهل هذا الزمان الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

بدعة عجيبة أخرى « الفدية »

من عجائب ما يقع في المغرب وينسب إلى الإسلام والإسلام بريء منه شيء يسمونه الفدية وهو شائع عند الجهلة يدعو أولياء الميت جماعة من البطالين المحتالين ليعملوا لهم « فدية » للميت تنقذه من العذاب وتجعله من أهل الجنة فإذا كان قبره حفرة من حفر النار ينقلب في الحين روضة من رياض الجنة وذلك أن أولئك البطالين يذكرون « لا إله إلا الله سبعين ألف مرة يتقاسمون العدد فيما بينهم كل واحد بضعة آلاف فيطعمهم ذلك المسكين ويعطي كل واحد منهم شيئًا من الدراهم يأكلها سحتًا، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال صاحب التيسير ما نصه: يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله ليدخروا الثواب عنده: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ ﴾ أي لا يشتري نفسه ولو دفع ملء الأرض ذهبًا ولا تنفعه الصحبة ولا القرابة، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقوله: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ولا ظالم أظلم ممن لقي الله كافرًا.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ الآية ٣١.

قال صاحب التيسير ما نصه: « يأمر الله عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة مع عبادة الله وحده لا شريك له وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب والمراد بإقامة الصلاة هو المحافظة عليها وقتًا وحدودًا وركوعًا وسجودًا وخشوعًا، والإنفاق خفية وجهرًا وذلك لخلاص أنفسهم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تفدي نفسه بمال وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ أي ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة، بل هناك العدل والقسط، والمراد أنه لا ينفع أحدًا بيع ولا فدية ولا صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرًا، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الآية ١٥.

قال صاحب التيسير: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه، وقوله تعالى: ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي هي مصيركم، وقوله تعالى: ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

قال محمد تقي الدين: والآيات في هذا المعنى كثيرة فمن ثبته الله بالقول الثابت ورزقه حسن الخاتمة فإنه يوفقه عند سؤال القبر إلى الجواب الصحيح ويفسح له في قبره ويكون قبره

روضة من رياض الجنة وذلك هو السعيد فلا يرى إلا ما يسره في البرزخ ثم يبعثه الله ويحاسبه حسابًا يسيرًا أو يكون من الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كما جاء في الحديث الصحيح: « وإن أضله الله كما يضل الظالمين وختم له بسوء جزاء وفاقا ولم يوفق إلى إجابة سؤال الملكين فحقت عليه كلمة العذاب فلو اجتمع جميع أهل الأرض وذكروا لا إله إلا الله سنين عديدة لم يستطيعوا أن يخففوا عنه شيئًا من العذاب وإن قل فهذه الفدية التي يعملها جهال المغاربة مكن البدع والضلالات ولا تجلب على فاعلها إلا مقت الله وغضبه وأما الميت فإن كان موحدًا لله متبعًا لسنة رسول الله ﷺ وفعلها أولياؤه لم تضره وإن كان موافقًا لأهلها موصيًا لهم بها زاده الله بها عذابًا.

ما يعتقده المسلم في الخلفاء الراشدين وسائر أصحاب رسول الله أجمعين

قال شارح الطحاوية: قوله « ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة ».

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق، هل كانت بالنص، أو بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة ومنهم من قال بالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار؟

والدليل على إثباتها بالنص أخبار: من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك ؟ كأنها تريد الموت قال: « إن لم تجديني فأتي أبا بكر » والثاني: حديث حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » رواه أهل السنن، وفي الصحيحين عن عائشة وعن أبيها، قالت: دخل على رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه فقال: ادعى لي أباك وأخاك » حتى أكتب لأبي بكر كتابًا، ثم قال يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر » وفي رواية: « فلا يطمع في هذا الأمر طامع » وفي رواية قال: « ادعى لي عبد الرحمن بن أبي بكر، لأكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف عليه، ثم قال: معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر ».

قال محمد تقي الدين: وهذا نص صريح يدلنا على أن النبي ﷺ ما ترك الكتابة لأبي بكر الصديق أن يكون الخليفة بعده إلا لأن الله أعلمه أن هذا هو الذي سيكون فلم يحتج إلى كتابة. وكذلك وقع فالعجب من الشيعة كيف عموا عن هذه الحقيقة ومن يضلل الله فما له من هاد. ثم قال شارح الطحاوية: وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة، وهو يقول: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة، فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينا أنا نائم رأيتني على قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ثم استحالت غربًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريًا من الناس يفري فريه، حتى ضرب الناس بعطن ». وفي الصحيح أنه ﷺ قال على منبره: « لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت، إلا خوخة أبي بكر ».

فصل في بيان معنى ما تقدم من الأحاديث

الأول: حديث المرأة التي جاءت إلى النبي ﷺ فأكرمها وأعطاها شيئًا من المال وأمرها أن ترجع إليه ليعطيها مرة أخرى فقالت له، ماذا أصنع إن جئت فلم أجدك قال: ائتي أبا بكر تجدي عنده مثل ما وجدت عندي وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يعلم بإعلام الله له أن أبا بكر هو الخليفة من بعده وهذا واضح لمن كان له قلب صاف خال من سموم البدعة.

الحديث الثاني: أمر النبي ﷺ جميع المسلمين أن يقتدوا بالذين من بعده أبي بكر وعمر، يعني اقتداء خاصًا وذلك يدل على خلافتهما وفضلهما على غيرهما وإلا فالاقتداء العام لا يختص بهما قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وفي الحديث الرابع أيضًا دليل واضح على خلافة أبي بكر الصديق لأن النبي ﷺ قال لعائشة ومن معها: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لا يسمع الناس وأشارت على النبي ﷺ أن يأمر بذلك عمر

فغضب وقال إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس وقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ من هذا الأمر أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ وقالوا: جعله النبي ﷺ إمامًا لنا في ديننا فكيف لا نجعله إمامًا في دنيانا ».

والحديث الخامس: حديث الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ.

شرح معاني المفردات: قوله (قليب) قال الكرماني قال الخطابي: « أي بئر تحفر فينقلب ترابها قبل أن تطوى ».

قال محمد تقي الدين: ومعنى « تطوي » تبني جوانبها بالحجارة فإذا حفرت البئر حتى ظهر ماؤها ولم تبن جوانبها بالحجارة ولا بغيرها فهي قليب.

قال في النهاية « الغرب » بسكون الراء، الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد ثور. قال الكرماني « العبقري » كل شيء يبلغ النهاية وقال في النهاية « عبقري القوم » سيدهم وكبيرهم وقويهم والأصل في العبقري، فيما قيل، أن عبقر قرية يسكنها الجن فيما يزعمون فكلما رأوا شيئًا فائقًا غريبًا مما يصعب عمله ويدق، أو شيئًا عظيمًا في نفسه نسبوه إليها فقالوا: عبقري، ثم اتسع حتى سمي به السيد الكبير.

قال محمد تقي الدين: ومعنى « يفري فرية » أي يقطع قطعه قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

والخلق هنا معناه « التقدير » يصف الشاعر ممدوحه بقوة العزم وإنجاز الوعد والعطن مناخ الإبل و « والذنوب » الدلو المملوءة ماء قال الكرماني في معنى الحديث « وهذا مثل ضربه في ولاية أبي بكر وعمر بعد رسول الله ﷺ و « الذنوبان » إنما هما سنتان وليهما أبو بكر و « ضعف نزعه » إنما هو إشغاله بقتال أهل الردة ولم يتفرغ لفتح الأمصار وجباية الأموال وأما عمر فطال زمانه وكثرت فتوحات الممالك وحسنت أحوال المسلمين فيه.

قال محمد تقي الدين: وكون أبي بكر الصديق لم يعش إلا سنتين بعد النبي ﷺ وشغله بقتال أهل الردة عن الفتوحات ليس نقصًا في حقه فإن فتنة الردة كانت خطرًا عظيمًا على الإسلام فإطفاء نارها منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق وهو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ بالأدلة القاطعة وباتفاق أهل السنة يدلك على ذلك الحديث السادس: « لو كنت متخذًا

من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » الحديث ولما سئل النبي ﷺ من أحب الناس إليك قال عائشة « قيل من الرجال قال أبوها » وفضائله كثيرة رضوان الله عليه، قال أبو عمر ابن عبد البر: « ومكث أبو بكر في خلافته سنتين وثلاثة أشهر إلا خمس ليال، وقيل غير ذلك. انتهى من المجلد الثاني من الاستيعاب، صفحة ٢٤٧.

قال شارح الطحاوية رحمه الله: قوله: « ثم لعمر بن الخطاب » أي ونثبت الخلافة بعد أبي بكر لعمر، وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر، فقد روي عن محمد بن الحنفية أنه قال: قلت لأبي: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال: يا بني، أو ما تعرف ؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من ؟ قال عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان فقلت ثم أنت ؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. وتقدم قوله ﷺ: « اقتدوا بالذين من بعدي، أبي بكر وعمر » وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال وضع عمر على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، قبل أن يرفع، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقي الله بمثل عمله منك، وأيم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيرًا ما أسمع رسول الله ﷺ يقول، جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو، أو لأظن أن يجعلك الله معهما. وتقدم حديث أبي هريرة في رؤيا رسول الله ﷺ، ونزعه من القليب ثم نزع أبي بكر، ثم استحالت الدلو غربًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريًا من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب بطعن. وفي الصحيحين، من حديث سعد بن أبي وقاص: قال استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش، يكلمنه، عالية أصواتهن — الحديث، وفيه — فقال رسول الله ﷺ « إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجا إلا سلك فجا غير فجك » وفي الصحيحين أيضًا، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم » قال ابن وهب، تفسير « محدثون » ملهمون.

مقتل عمر بن الخطاب ﷺ

قال البخاري بسنده عن عمرو بن ميمون قال: « رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بأيام بالمدينة ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف. قال: كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ؟ قالا حملناها أمرًا هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل.
قال انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق. قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدًا. قال فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب — وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل، وذلك في الركعة الأولى حتى تجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي رأى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وعم يقولون: سبحان الله. فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلني. فجال ساعة، ثم جاء فقال « غلام المغيرة » قال: الصنع ؟ قال: نعم. قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقًا. فقال: إن شئت فعلت — أي إن شئت قتلناهم، قال: كذبت، بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم ؟ فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول: لا بأس وقائل يقول: أخاف عليه. فأتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه وجاء رجل شاب قال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا

على الغلام ؟ قال ابن أخي، أرفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك يا عبد الله بن عمر، انظر ما على من الدين — فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه. قال إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعد إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل، يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا — وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك ؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إلى من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجت داخلاً فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمي عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له، فإن أصابت الأمرة سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيرًا، الذي تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم رده الإسلام، وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر قال يستأذن عمر بن الخطاب قالت:

أدخلوه فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه ؟.

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

قال شارح الطحاوية: لما دفن عمر اجتمع أهل الشورى وهم ستة نص عليهم عمر رضي الله عنه فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط، الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. فسمي عليا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعدا، وعبد الرحمن، وقال يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء.

فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم قال الزبير، قد جعلت أمري إلى على، فقال طلحة قد جعلت أمر إلى عثمان، وقال سعد، قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن، أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ؟ والله عليه والإسلام ؟ لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلى ؟ والله على أن لا آلو عن أفضلكما ؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لئن أمرتك لتعدلن ؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له على، وولج أهل الدار فبايعوه.

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة، كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه، وفي « صحيح مسلم » عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيته وكاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال: « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » وفي الصحيح لما كان يوم بيعة الرضوان وأن عثمان كان قد بعثه النبي ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى « هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان ».

خلافة علي بن أبي طالب ﷺ

قال شارح الطحاوية: قوله: « ثم لعلي بن أبي طالب ﷺ » أي نثبت الخلافة بعد عثمان لعلي، لما قتل عثمان وبايع الناس عليًا صار إمامًا حقًا واجب الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « خلافة النبوة، ثلاثون سنة، ثم يأتي الله ملكه من يشاء ».

كانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفًا، وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة، وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر وخلافة الحسن ستة أشهر.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين على بن أبي طالب بعد عثمان بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام والحق مع على ﷺ.

من فضائل أمير المؤمنين على بن أبي طالب. ما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » وقال ﷺ يوم خيبر « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله » قال فتطاولنا لها، فقال ادعوا لي عليا، فأتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، فتح الله عليه » ولما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١]، دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: « اللهم هؤلاء أهلي ».

قوله: هم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون

تقدم الحديث الثابت في السنن وصححه الترمذي، عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: « أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة » وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل، كترتيبهم في الخلافة.

فضل العشرة المبشرين بالجنة

قال شارح الطحاوية ما نصه: قوله: « إن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين.

تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة، ومن فضائل الستة الباقين من العشرة، ما رواه مسلم، عن عائشة ﵂: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت، وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي ﷺ « من هذا » ؟ فقال سعد بن أبي وقاص، يا رسول الله جئت أحرسك – وفي لفظ آخر وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد فقال ارم، فداك أبي وأمي، وفي صحيح مسلم عن قيس بن أبي حازم، قال رأيت يد طلحة التي وقي بها النبي ﷺ يوم أحد قد شلت ».

قال في الكواشف الجلية ما نصه: أهل السنة والجماعة يشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وهم:

(١) أبو بكر، (٢) وعمر، (٣) وعثمان، (٤) وعلى، (٥) وعبد الرحمن بن عوف، (٦) والزبير بن العوام، (٧) وسعد بن أبي وقاص، (٨) وسعيد بن زيد، (٩) وأبو عبيدة بن الجراح، (١٠) وطلحة بن عبيد الله، وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهم بالجنة.

(١١) والحسن، (١٢) والحسين لما في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ».

(١٣) وثابت بن قيس بن شماس ةلقوله ﷺ أنه من أهل الجنة وعبد الله بن سلام لما روي البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام.

(١٤) والرجل الذي قال فيه النبي ﷺ: « يطلع الآن رجل من أهل الجنة » ففي حديث أخرجه الترمذي والنسائي عن أنس أن النبي ﷺ قال في أيام ثلاثة: « يطلع عليكم الآن

رجل من أهل الجنة » فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفًا حاله فلم ير له كثير عمل فأخبره الخبر فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

(١٥) وعكاشة بن محصن لما ذكر السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال ادع الله أن يجعلني منهم، فقال أنت منهم، الحديث.

(١٦) والمرأة التي قالت إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي: فقال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت أصبر ثم قالت: « إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها ».

قال محمد تقي الدين: وبالجملة كل من شهد له رسول الله ﷺ أنه في الجنة نعتقد أنه من أهل الجنة إذا روي بسند صحيح وتخالف في ذلك الرافضة والخوارج كل المخالفة ونعتقد أن كل من شهد غزوة بدر مع النبي ﷺ فهو في الجنة لحديث حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى المشركين في مكة يخبرهم بأن النبي ﷺ متوجه إلى غزوهم فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك، فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: « إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه.

وصح عن النبي ﷺ من حديث جابر أنه قال: « لا يدخل لنار أحد بايع تحت الشجرة » وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة. ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قال تعالى في سورة الفتح: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾.

ومن عقيدة أهل السنة أنهم لا يشهدون لأحد من المسلمين بالجنة ولا بالنار إلا من شهد له الرسول ﷺ قال شارح الطحاوية.

قوله: « ولا ننزل أحدًا منهم جنة ولا نارًا » يريد أنا لا نقول في أحد معين من أهل القبلة أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة ﷺ، وإن كنا نقول: إنه لابد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار، ثم يخرج

منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقف في الشخص المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم، لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين.

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال: أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية، والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث، والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما في الصحيحين: أنه مر بجنازة، فأثنوا عليها بخير، فقال النبي ﷺ: « وجبت ومر بجنازة أخرى، فأثنى عليها بشر، فقال وجبت » وفي رواية: « وجبت » ثلاث مرات فقال عمر، يا رسول الله، ما وجبت ؟ فقال رسول الله ﷺ: « هذا أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض » وقال ﷺ: « توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار » قالوا: بم يا رسول الله ؟ قال: « بالثناء الحسن والثناء السيئ » فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار.

قال محمد تقي الدين: والراجح هو الذي أسلفت ذكره وهو أننا لا نشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ ومن الأدلة على ذلك ما رواه أحمد والبخاري عن أم العلاء قالت: « فاشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ: « وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » قالت فقلت: والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله ﷺ ذاك عمله » انفرد به البخاري دون مسلم وفي لفظ له: « وما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به » وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، ثم ذكر جماعة من أخبر النبي ﷺ بدخولهم الجنة. انتهى من تفسير ابن كثير، في سورة الأحقاف.

فصل

وقد ظهر في آخر الزمان من يضمن دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب لكل من أحبه أو أطعمه أو سقاه أو قضا له حاجة كما يزعم التجانيون فيما نسبوه إلى شيخهم أحمد بن محمد التجاني المتوفى سنة ١٢٣٠ المدفون في مدينة فاس بالمغرب الأقصى والطريقة التجانية من طرق المتصوفة المشهورة في هذا الزمان وأتباعها يعدون بالملايين وأكثرهم في إفريقية السوداء ويوجدون في مصر والشام والحجاز وبلاد الأتراك وقد ألفت كتابًا سميته: « الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية » قام بطبعه ونشره صاحب السماحة الوزير المفوض للإفتاء العام والبحوث العلمية والدعوة والإرشاد في الوقت الحاضر وكان قبل ذلك رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ألا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وهو من بقية السلف الصالح في هذا الزمان علمًا وعملاً وورعًا أمتع الله المسلمين بطول بقائه ودوام ارتقائه ؟ وقد رأيت أن أنقل شيئًا من الكتاب المذكور فقد جاء في صفحة ٨١ منه ما نصه:

الفصل الثاني في فضل المتعلقين بالشيخ أحمد التجاني:

اعلموا أن التجانيين رووا عن شيخهم فضائل تحصل للمتعلقين به مصادمة للكتاب والسنة وإجماع الأمة، وزعموا أن الشيخ التجاني كتب تلك الفضائل بيده وسلمها إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يقرأها ويضمنها له فقرأها وضمنها له وقع ذلك يقظة لا منامًا انظر صفحة ٤٤ من الجزء الثاني من الرماح، وهذه الفضائل زعموا أن الله يعطيهم إياها بسبب تعلقهم بشيخهم وسأسرد هنا هذه الفضائل وعددها تسع وثلاثون، أربع عشرة فضيلة تحصل لكل من اعتقد فيه الخير ولم يعترض على طريقة وكان محبًا له ولأصحابه ولكل من أطعمه أو سقاه أو قضي له حاجة إذا استمر على محبته حتى الموت وأن يأخذ ورده ولم يصر من أصحاب طريقته وسائر الفضائل وهي خمس وعشرون خاصة بمن أخذ الطريقة والتزم شروطها:

الفضيلة الأولى: أن النبي ﷺ ضمن له أن يموتوا على الإيمان والإسلام.

الفضيلة الثانية: أن يخفف الله عنهم سكرات الموت.

الفضيلة الثالثة: لا يرون في قبورهم إلا ما يسرهم.

الفضيلة الرابعة: « أن يؤمنهم الله تعالى من جميع أنواع عذابه وتخويفه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة ».

الخامسة: أن يغفر الله لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر.

السادسة: أن يؤدي الله تعالى عنهم جميع تبعاتهم ومظالمهم من خزائن فضله عز وجل لا من حسناتهم.

السابعة: أن لا يحاسبهم الله تعالى ولا يناقشهم ولا يسألهم عن القليل والكثير يوم القيامة.

الثامنة: أن يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم القيامة.

التاسعة: أن يجيزهم الله تعالى على الصراط أسرع من طرفة عين على كواهل الملائكة.

العاشرة: أن يسقيهم الله تعالى من حوضه ﷺ يوم القيامة.

الحادية عشرة: أن يدخلهم الله تعالى إلى الجنة بغير حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى.

الثانية عشرة: أن يجعلهم الله تعالى مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس وجنة عدن..

الثالثة عشرة: أن النبي ﷺ يحب كل من كان محبًا له.

الرابعة عشرة: أن محبة لا يموت حتى يكون وليًا قال أي: « أحمد التجاني » قد أخبرني سيد الوجود ﷺ أن كل من أحبني فهو حبيب للنبي ﷺ ولا يموت حتى يكون وليًا قطعًا، وقال لي سيد الوجود ﷺ أنت من الآمنين ومن أحبك من الآمنين، وأنت حبيبي ومن أحبك حبيبي، وكل من أخذ وردك فهو محرر من النار، وقال أبشروا أن كل من كان في محبتنا إلى أن مات عليها يبعث من الآمنين على أي حالة كان ما لم يلبس حلة الأمان من مكر الله وقال: وأما من كان محبًا ولم يأخذ الورد فلا يخرج من الدنيا حتى يكون من الأولياء.

ثم قلت في الرد على هذه الباطيل في صفحة ٨٦ ما نصه:

قال محمد تقي الدين: لم يستوف صاحب الرماح الفضائل التي وعد بذكرها بل اقتصر على ذكر ثلاث وثلاثين وفي ما ذكره من الطوام والضلالات ما لا يبقي شكًا في أن

هذه الطريقة على الحال الراهنة يستحيل أن تجتمع في قلب شخص واحد مع ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحنيف المبني على الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وسنعقب عليها بالنقد والنقض حتى يتضح بطلانها وتنجلي ظلمتها، بحول الله وقوته وحسن توفيقه.

اعلم أيها القارئ الموفق لمعرفة الحق واتباعه مع من كان وحيث كان إن ما ذكره صاحب الرماح من الفضائل بزعمه له ولإخوانه في الطريقة ولشيخهم بزعمهم مردود من وجوه بعضها إجمالي وبعضها تفصيلي، ولنبدأ بالإجمالي فنقول:

كل ما نسبوه إلى النبي ﷺ من الأخبار هو من شر أقسام الموضوع المفترى وقد خاب من افترى، فإن الأمة بعلمائها وأئمتها من أبي بكر الصديق ﷺ إلى أن تقوم الساعة، أجمعت الأمة على أنه لا طريق لتلقي خبر من الأخبار عن النبي ﷺ إلا بالسماع والمشاهدة في حياته الدنيوية، أو بواسطة الثقافة الإثبات بالسند المتصل وما ذكروه من الأخبار ليس له سند أصلاً وما زعموه من السماع كذب بإجماع الأئمة، ومن خرق إجماعهم ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم، وكان مشاقًا للرسول ﷺ ومتبعًا غير سبيل المؤمنين، ومن ذلك أن تلك الأخبار مناقضة لكتاب الله وللأخبار الصحيحة المروية بأسانيد كالشمس معلومة التواتر أو الصحة العالية، إذا قرأت ما تقدم من الرد تبين لك خلاله فساد تلك الأخبار وبطلانها واضمحلالها » اهـ.

ومن شاء أن يطلع على الرد التفصيلي يجده في كتابي « الهدية الهادية ».

التحذير من اتباع جهلة متصوفة فيما أحدثوه من البدع

قال شارح الطحاوية صفحة ٥٥٦. وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برئاسته واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه، إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء ومنهم من يقول أن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء أو يدعي لنفسه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، ولكن هذا يقول: هو الله وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله، وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال النبوة

ختمت لكن الولاية لم تختم:

وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها كما قال:

مقـــام النبـــوة في بـــرزخ فويـــق الرســـول ودون الـــولي

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة، كما تقدم تنبيه على ذلك. وقال ابن عربي أيضًا في « فصوصه »: ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو ﷺ موضع اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلابد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله النبي ﷺ، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين، ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين، فيكمل الحائط، والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين، الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضية هي ظاهرة وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو أخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلابد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه، يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي إليه إلى الرسول ﷺ قال فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع، **قال محمد تقي الدين:** فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسل المثل بلبنة فضة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل ؟ تلك أمانيهم: ﴿ **إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** ﴾ [غافر: ٦٥]. وكيف يخفى كفر من هذا كلامه ؟ وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر، ومنه ما يظهر فلهذا يحتاج إلى نقد جيد، ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير، وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية في الدرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين، لإظهارهم الإسلام، كما كان يظهره المنافقون في حياة والنبي ﷺ ويبطنون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر،

لأجرى عليه حكم المرتد، ولكن في قبول توبته خلاف والصحيح عدم قبولها.

الإيمان بأشراط الساعة

قال شارح الطحاوية قوله: « ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض موضعها ».

عن عوف بن مالك الشجعي قال أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم فقال اعدد ستًا بين يدي الساعة، موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص[1] الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا » وروي « راية » بالراء، وهما بمعنى، رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والطبراني. وعن حذيفة بن أسيد، قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال (ما تذاكرون) قالوا: نذكر والساعة. فقال: « إنها لن تقوم حتى ترو قبلها عشر آيات » فذكر « الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » رواه مسلم، وفي « الصحيحين » واللفظ للبخاري، عن ابن عمر قال ذكر الدجال عند النبي ﷺ، فقال: « إن الله لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية » وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك ف ر »، فسره في رواية « أي كافر » وروي البخاري وغيره، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً » فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد،

---

(١) الموت المفاجئ يصيب الغنم فيقتلها جميعًا.

حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]، وأحاديث الدجال، وعيسى بن مريم عليه السلام، ينزل من السماء ويقتله، يخرج يأجوج مأجوج في أيامه بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم، ويضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب – فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وروي البخاري عند تفسير الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » وروي مسلم، عن عبد الله بن عمرو، قال حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها « فالأخرى على أثرها قريبًا » أي أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة، لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس على خلاف عاداتها المألوفة – أول الآيات السماوية، وقد أفرد الناس في أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة يضيق عن بسطها هذا المختصر اهـ.

فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ

اعلم أن أهل السنة يحبون أزواج النبي ﷺ وأهل بيته ويكرمونهم ولا يذكرونهم

إلا بأحسن الذكر بدون إفراط ولا تفريط قال الله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

قال الميسر لاختصار ابن كثير ما نصه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال وما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه » تفرد به البخاري.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي في الحرمة والاحترام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهم بالإجماع.

قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً، وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

قال المحقق محمد صديق حسن في تفسيره: « قال الواحدي قال المفسرون أن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئًا من عرض الدنيا وطلبن منه الزيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرًا وأنزل الله آية التخيير هذه وكن يومئذ تسعًا عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وسودة وهؤلاء من نساء قريش وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطاقية، ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ أي سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الأموال والتنعم فيها ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ أي أقبلن إلى بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أي أعطكن المتعة

﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أي أطلقكن ﴿ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي تردن رسوله وذكر الله للإيذان بجلالة محمد ﷺ عنده تعالى ﴿ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ أي الجنة ونعيمها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ ﴾ أي اللاتي عملن عملاً صالحًا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يمكن وصفه ولا يقدر قدره وذلك بسبب إحسانهن وبمقابلة صالح عملهن.

وقد خيرهن رسول الله ﷺ بإذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق وفي الصحيحين عن عائشة قالت: « خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعده طلاقًا » وقد أخرج مسلم عن جابر قال: « أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفًا فوجأت في عنقها فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال هن حولي يسألني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت فبدأ بي فقال إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه فقال إن الله قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ إلى تمام الآية فقلت أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الأخرة وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ إياه أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيمًا لحقهن فقال: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ ﴾ من بيانية لأنهن كلهن محصنات ﴿ بِفَاحِشَةٍ ﴾ أي معصية ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أي ظاهرة القبح واضحة الفحش وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن فهو كقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن ولأن ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل لأن المعصية منه أقبح ولذا فضل حد الأحرار على العبيد وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصي تضاعف العقوبات والمراد بالعذاب هنا الحد وقال مقاتل هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة كما أن إيتاء الأجر مرتين في الآخرة وهذا حسن لأن نساء النبي ﷺ لم يأتين بفاحشة توجب حدًا وقد قال ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط وإنما خانتا في الإيمان والطاعة.

قال محمد تقي الدين: قول ابن عباس: « ما بغت امرأة نبي قط » أي ما زنت وخيانة امرأة نوح وامرأة لوط المذكورتين في سورة التحريم ليس معناها الزنى وإنما هي عدم الإيمان وعدم طاعة زوجيهما نوح ولو عليهما السلام.

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هينا لا يتعاظمه ﴿ وَمَن يَقْنُتْ ﴾ والقنوت الطاعة أي يطع، ﴿ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ يعني أنه يكون لهن من الأجر على والطاعة مثلي ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة وفي هذا دليل قوي على أن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين، أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثًا لأن المراد إظهار شرفهن ومرتبتهن في الطاعة والمعصية لكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين ولو كانت كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرين. قيل الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين.

﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء ﴾ قال الزجاج لم يقل كواحدة من النساء لأن أحد لفظ عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة وقد يقال علي ما ليس بآدمي كما يقال ليس فيها أحد لاشاه ولا بعير والمعني لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل

والشرف قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال ﴿ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** ﴾ الله فأطعنه فإن الأكرم عند الله هو الأتقى فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ. وقد وقعت منهن ولله الحمد التقوى البينة والإيمان الخالص والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي أن اتقيتن فلستن كأحد من النساء، ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ** ﴾ والمعنى لا تلن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ولا ترقق الكلام قال ابن عباس يقول: « لا ترضخن بالقول ولا تخضعن بالكلام وعنه قال مقارنة الرجال بالقول فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهي قوله: ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ أي فجوز وشهوة أو شك وريبة أو نفاق والمعنى لا تقلن قولاً يجد المنافق والفاجر به سبيلاً إلى الطمع فيكن والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ عند الناس أي حسنًا مع كونه خشنًا بعيدًا من الريبة على سنن الشرع لا ينكر منه سامعه شيئًا ولا يطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه أو قولاً يوجبه الإسلام والدين عند الحاجة إليه ببيان من غير خضوع ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾ أي الزمن بيوتكن.

قال محمد تقي الدين: وفي الصحيح أن النبي ﷺ لما حج بزواجه قال لهن هذه وأحلاس البيوت ولذلك التزمت بعض أزواج النبي ﷺ وهي سودة أن لا تخرج من حجرتها حتى تموت وكذلك فعلت ثم نعود إلى كلام القنوجي قال: ﴿ **وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى** ﴾ التبرج أن تبدي المرأة زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي بشهوة الرجل.

والجاهلية الأولى هي ما قبل الإسلام إذ كانت المرأة تكشف محاسنها وتتزين للناس والجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان.

قال محمد تقي الدين: وقد بلغ السيل الزبي واتسع الخرق على الراقع في هذا الزمان ومحيت الغيرة والشرف من قلوب الرجال وأصبح أكثرهم ديوثين وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة ديوث » اهـ وهو جدير بذلك فإذا ذهب الدين والعرض فلا خير في الحياة اهـ.

﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ﴾ الواجبة ﴿ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر وفيما نهى وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية ولأن من واظب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ أي إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى وأن لا تخضعن بالقول ومن قول المعروف والسكون في البيوت وعدم التبرج وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ والمراد بالرجس الإثم والذنب المدنسان للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله، ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ نصبه على النداء أو المدح ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ من الأرجاس والأدناس ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ كاملاً وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ وزجر لفاعلها شديد. وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية فقال ابن عباس وجماعة من التابعين أن أهل البيت المذكورين في الآية هن زوجات النبي ﷺ خاصة قالوا والمراد بالبيت بيت النبي ﷺ ومساكن زوجاته لقوله ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ وأيضًا السياق في الزوجات من قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

وقال أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين أن أهل البيت المذكورين في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث وهو قوله: ﴿ عَنكُمُ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن وليطهركن وأجاب الأولون عن هذا بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ وكما يقول الرجل لصاحبه كيف أهلك يريد زوجته أو زوجاته فيقول هم بخير ولنذكر ههنا ما تمسك به كل فريق.

أما الأولون فتمسكوا بالسياق فإنه في الزوجات كما ذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة وقال عكرمة: « من شاء باهلته » إنها نزلت في أزواج النبي ﷺ وروي هذا عنه بطرق وأما ما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه عن أم سلمة قالت في بيتي نزلت ﴿ إِنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ الآية وفي البيت فاطمة وعلى والحسن والحسين فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا. وأخرج ابن جرير وجماعة من المحدثين والمفسرين عن أم سلمة أيضًا أن النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ ادعي زوجك وابنيك حسنا وحسينا فدعوتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي ﷺ: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ فأخذ النبي ﷺ بفظة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا قالها ثلاث مرات قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يا رسول الله وأنا معكم فقال إنك إلى خير، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء على فأدخله معه ثم قال: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ** ﴾ الآية.

وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال أذكركم الله في أهل بيتي فقيل لزيد ومن أهل بيته أليس نساؤه من أهل بيته قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

ثم قال: « وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ النازلات في منازله ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره وأما دخول على وفاطمة والحسن والحسين فللحديث الذي تقدم ذكره.

قال محمد تقي الدين: وهذا القول هو الصحيح وهو واضح لاشك فيه أما أزواج النبي ﷺ فالقرآن يدل عليهن دلالة لا تقبل الشك وأما فاطمة فهي بنت النبي ﷺ وسيدة نساء العالمين وقد قال فيها النبي ﷺ: « إن فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها » وفي لفظ « يسوؤني ما ساءها » وأما الحسين والحسن فقد سماهما النبي ﷺ ابنيه وأبناء الإنسان من أهل بيته وأما على فقد نشأ في بيت النبي ﷺ واختاره بعلا لابنته وقال له: « أنت مني

بمنزلة هارون من موسى » كما تقدم في ذكر الخلفاء الراشدين، ولما خرج النبي ﷺ لمباهلة وفد نجران بعد ما أمره الله تعالى بقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ﴾ أخذ معه فاطمة وعليًا والحسن والحسين وقد تقدم ذكر ذلك في القسم الأول من هذا الكتاب، وهؤلاء الأربعة أخص من غيرهم ويليهم المذكورون في حديث زيد بن أرقم، الذين حرمت عليهم الصدقة فمن كان يحب النبي ﷺ فلابد أن يحب آل بيته، الذين توفى وهو عنهم راض ومن اتبعهم من ذرياتهم يلحقه الله تعالى بهم، أما من أشرك بالله أو ابتدع في دين الله فليس من أولياء الله ولا من أولياء رسوله فقد أخرج البخاري من حديث عمرو بن العاص: « أن رسول الله ﷺ قال: « إن آل أبي فلان يعني أبا طالب ليسوا لي بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين ولكن لهم رحم أبلها ببلالها، انظر الباب الأخير من سورة الشعراء من القسم الأول من هذا الكتاب.

وأما الذين يعتمدون على الانتساب المجرد، فقد ضلوا ضلالاً بعيدًا، مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون اهـ.

فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ بالتفصيل وذكر بعض فضلهن رضي الله عنهن وسأنقل ذلك من كتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » لأني وجدته أحسن ترتيبًا وأسهل على القراء من سيرة ابن هشام وغيرها ممن جمع تراجم الأزواج الطاهرات.

ولا ينقصه إلا عدم عزو الأحاديث وذلك لا يضر لأن أكثر ما ذكر هنا مروي في كتب الحديث المعتبرة.

الأولى: خديجة بنت خويلد ﵂

قال أنس كان رسول الله ﷺ يذكر خديجة كثيرًا بعد موتها ويستغفر لها ويقول كانت وكانت وكان يكرم صدائقها بعد موتها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة وربما دخلت عليه العجائز اللاتي كن يدخلن على خديجة فيكرمهن:

قال ابن عباس وكانت قد تزوجت قبل رسول الله ﷺ زوجين ولم يتزوج رسول الله ﷺ عليها حتى ماتت لثلاث سنين قبل الهجرة وأرسل الله عز وجل لها السلام مع جبريل عليه السلام.

وكانت عائشة تقول: « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان رسول الله ﷺ يكثر ذكرها فأدركتني الغيرة يومًا فقلت: هل كانت إلا عجوزًا وقد أخلف الله لك خيرًا منها فغضب حتى اهتز مقدم رأسه من الغضب ثم قال: والله ما أخلف الله لي خيرًا منها لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس » رضي الله عنها.

الثانية: عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما

قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يقول لما توفيت خديجة نزل جبريل بصورة عائشة في سرقة[1] حرير خضراء فقال يا محمد هذه زوجتك في الدنيا والآخرة عوضًا عن خديجة بنت خويلد وقالت عائشة قال لي رسول الله ﷺ إن جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

وقالت عائشة وكان أزواج النبي ﷺ يرسلن فاطمة إليه كثيرًا ويقلن لها قولي لأبيك إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة وأنا ساكتة فتأتي فاطمة إليه فيقول لها رسول الله ﷺ أي بنيتي ألست تحبين ما أحب فتقول بلى قال فأحبي هذه فترجع فاطمة فتخبرهن بما قال لها رسول الله ﷺ فيقلن لها ما أغنيت عنا من شيء فارجعي إليه ثانيًا فلما أكثرن على فاطمة قالت لا أكلمه فيها أبدًا فسكتن.

وقالت عائشة رضي الله عنها وكان الناس يتحرون بهداياهم إلى رسول الله ﷺ يوم نوبتي فغارت أم سلمة وصواحبها وقلن نكلم رسول الله ﷺ في ذلك يكلم الناس ويقول ألا من أراد أن يهدي هدية إلى رسول الله ﷺ فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه فكلمته أم سلمة فسكت رسول الله ﷺ فأعادت عليه القول مرة أخرى فقال: لا تؤذيني في عائشة فقالت: يا رسول الله أتوب إلى الله.

وقالت عائشة: « كان رسول الله ﷺ يقول لي إني لأعلم إذا كنت عني راضية فإنك تقولين إذا كنت راضية لا ورب محمد وإذا كنت غضبى قلت لا ورب إبراهيم فأقول له نعم

---

(١) سرقة على وزن خشبة.

يا رسول الله ما أهجر إلا اسم فقط ».

وقلت عائشة: « كان رسول الله ﷺ يسابقني فأسبقه فلما لحقني اللحم كان يسبقني ».

وقال أنس: لما قربت وفاة عائشة ﵂ قيل لها ندفنك مع رسول الله ﷺ فقالت إني أحدثت بعده أمورًا فلما توفيت سنة ثمان وخمسين دفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة وكان خليفة لمروان بالمدينة وكان عمرها ستًا وستين سنة ﵂.

الثالثة: حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵂

قال عمر لما تأيمت بنتي حفصة من زوجها خنيس بن حذافة السهمي عرضتها على عثمان فقال سأنظر في ذلك فلبثت ليالي فلقيني فقال ما أريد أن أتزوج يومي هذا قال عمر فلقيت أبا بكر فقلت إن شئت أنكحتك حفصة فلم يرجع إلى شيئًا فكنت أوجد عليه من عثمان فلبثت ليالي فخطبها إلى رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه فلقيني أبو بكر فقال لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئًا حين عرضتها علي لأني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لنكحتها.

وكان ابن عمر يقول لما عرض عمر حفصة على عثمان يوم ماتت بنت رسول الله ﷺ قال له عثمان حتى تستأمر لي رسول الله ﷺ في ذلك فأتاه فقال له رسول الله ﷺ ألا أدلك على صهر هو خير لك من عثمان وأدل عثمان على صهر هو خير له منك فقال نعم فقال زوجني حفصة وأزوج عثمان ابنتي فقال نعم ففعل رسول الله ﷺ ولما بلغ عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة حثى على رأسه التراب وقال ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد اليوم فنزل جبريل عليه السلام من الغد على رسول الله ﷺ وقال إن الله تعالى يأمرك أن تراجع حفصة بنت عمر رحمة لعمر فإنها صوامة وإنها زوجتك في الجنة فراجعها.

ولدت حفصة ﵂ وقريش تبني البيت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين وتوفيت سنة خمس وأربعين في أيام معاوية وهي ابنة ستين سنة.

الرابعة: ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية ﵂

تزوجها رسول الله ﷺ في سنة سبع من الهجرة كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ ميمونة توفيت سنة إحدى وخمسين بوادي سرف وهو بينه وبين مكة عشرة أميال

وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها وبنو أخواتها رضي الله عنها.

الخامسة: أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية رضي الله عنها

قال الحافظ في الإصابة، كانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد، فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ في جمادي الآخرة سنة أربع كانت ممن أسلم قديمًا هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة.

قال صاحب كشف الغمة: قالت (أم سلمة) ولما خطبني رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله إني امرأة كبيرة ذات عيال فقال أما الذي ذكرت من السن فقد أصابني الذي أصابك وأما عيالك فإنهم عيالي فقلت سلمت نفسي إلى رسول الله ﷺ فتزوجني من ابني فأرسل إلى رسول الله ﷺ جرتين أصنع فيهما حاجتي ورحي ووسادة من أدم حشوها ليف ثم قال رسول الله ﷺ إني آتيكم الليلة إن شاء الله تعالى قالت فقمت فأخرجت حبات من شعير كان عندي في جرة وأخرجت شحمًا فعصدته له قالت ثم جاء رسول الله ﷺ فبات عندي إلى الصبح ثم فعل ذلك ثلاثة أيام.

قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ودار على نسائه يبدأ بأم سلمة لأنها أكبرهن سنًا وكان يختم بي وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يعد نساءه بالشيء يطلب رضاهن ولما تزوج أم سلمة قال لها: يا أم سلمة إني قد أهديت إلى النجاشي حلة وأواقي مسك وإني لا أراه إلا قد مات وما أرى الهدية إلا سترد إلي فإن ردت إلي فهي لك قالت أم سلمة: فلكان الأمر كما قال فأعطي كل امرأة من نسائه أوقية أوقية وأعطاني بقية المسك والحلة قال المسور بن مخرمة وكان رسول الله ﷺ يشاور أم سلمة في بعض أموره وهي التي أشارت إليه عام الحديبية بنحر البدن والحلق حين استشار الصحابة وسكتوا وقالت يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدًا منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلق رأسك ففعل وقال لأصحابه قوموا فانحروا ثم أحلقوا رضي الله عنها.

قال محمد تقي الدين: هذه الرواية مخالفة لما في الصحيح وهو أن النبي ﷺ لما منعه المشركون من دخول مكة عام الحديبية واتفق معهم على أنه يرجع في تلك السنة ويعود من قابل صار محصرًا فأمر الناس أن ينحروا بدنهم ويحلقوا رؤوسهم فلم يفعلوا ما أمرهم

فدخل على أم سلمة فقال لها هلك الناس وأخبرها أنه أمرهم فلم يمتثلوا فأشارت عليه أن ينحر بدنه دون أن يكلم أحدًا ويدعو الحلاق يحلق رأسه ففعل النبي ﷺ ما أشارت عليه به وقاموا كلهم فنحروا وحلقوا وهذا من فضائلها ورجاحة عقلها.

قال الحافظ: قال ابن حبان ماتت في آخر سنة إحدى وستين بعد ما جاءها نعي الحسين بن علي.

السادسة: أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب القرشية

قال صاحب كشف الغمة: وقالت (أم حبيبة) ﵂ كنت تحت عبيد الله بن جحش فهاجر بي إلى الحبشة الهجرة الثانية فارتد عن الإسلام وتنصر ومات هناك فبقيت على ديني إلى أن أرسل رسول الله ﷺ كتابه يخطبني من النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري وكنت قد رأيت تلك الليلة يقال لي يا أم المؤمنين ففرحت بذلك المنام فأولت الرؤيا أن رسول الله ﷺ يتزوجني فما هو إلا أن انقضت عدتي وإذا رسول النجاشي على بابي يستأذن ففتحت فإذا هي جارية النجاشي فقالت يقول لك الملك أن رسول الله ﷺ كتب إلي يخطبك مني فأعطيتها سوارين من فضة وخلخالين وخواتيم كانت في يدي ورجلي سرورًا بما بشرتني فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا وأرسل يقول لي وكلي من يزوجك فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن أبي العاص فوكلته فزوجني – وفي رواية عن أم حبيبة ﵂ قالت لما بعث النبي ﷺ كتابه إلى النجاشي أن يزوجني له جاءني النجاشي حتى وقف على باب داري واستأذن فأذنت له فأخبرني بذلك فقلت له بشرك الله بخير فقالت لي أبرهة جارية النجاشي التي كانت تقوم على طيبه ودهنه يقول لك الملك وكلي من يزوجك فوكلت فقام النجاشي فخطب فقال الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها بأربعمائة دينار ثم سكب الدنانير بين يدي القوم ثم خطب الوكيل وقال قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقبض الدنانير فلما وصل إلى المال أرسلت إلى جارية أبرهة التي كانت بشرتني بكتاب رسول الله ﷺ فقلت لها إني كنت

أعطيتك يومئذ ما أعطيتك ولا مال لي فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فأبت وأخرجت لي حقا فيها كلما كنت أعطيتها وردته على وقالت عزم على الملك أن لا آخذ منك شيئًا وقد تبعت دين محمد وأسلمت لله رب العالمين قالت أم حبيبة ولما قبض خالد المال أراد القوم أن يقوموا فقال النجاشي اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا ثم أمر النجاشي نساءه أن يبعثن إلى بكل ما عندهن من أنواع العطر فأرسلن إلى الورس والعود والعنبر والزباد[1] مع جارية النجاشي فأعطتني ذلك ثم بكت وقالت اقراي رسول الله ﷺ مني السلام إذا قدمت عليه ما زالت تتردد إلى بأنواع الهدايا وتقول لا تنسي حاجتي قالت أم حبيبة فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة فتبسم رسول الله ﷺ وأقرأته سلام الجارية فقال وعليها السلام ورحمة الله وبركاته قال أنس وكانت أم حبيبة تقل سألت رسول الله ﷺ عن المرأة يكون لها زوجان ثم تموت فتدخل الجنة وهي وزوجاها لأيهما تكون للأول أو للآخر فقال: تخير أحسنهما خلقًا كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة قال عبد الله بن مسعود وكانت أم حبيبة كلما يدخل عليه أبو سفيان بن حرب أبوها تطوي فراش رسول الله ﷺ دونه فإذا سألها عنه تقول له أنت امرؤ نجس مشرك وذلك قبل إسلامه وقد أسلم يوم فتح مكة ﷺ.

وكانت عائشة تقول لكما قربت وفاة أم حبيبة دعتني فقالت قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان ذلك فقلت غفر الله لك ذلك كله وتجاوز عنك فقالت سررتني سرك الله ثم أرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك رضي الله عنهن أجمعين، توفيت سنة أربع وأربعين في أيام معاوية، رضوان الله عليها.

السابعة: جويرية بنت الحارث المصطلقية ﷺ

توفيت سنة ست وخمسين من الهجرة وهي بنت خمس وستين سنة، قالت عائشة لما أصاب رسول الله ﷺ نساء بني المصطلق وقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على تسع أواق وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها احد إلا أخذت بنفسه فبينا رسول الله ﷺ

(١) الزباد: بفتح أوله نوع من الطيب.

عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها فوالله ما هـو إلا أن رأيتهـا فكرهـت دخولهـا على النبي ﷺ وعلمت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت فكلمته فقال رسول الله ﷺ أو نفعل بك خيرا من ذلك قالت: وما هو؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك قالت: نعم يا رسول الله قال: قد فعلت ثم خرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوا يا ناس ما في أيديكم من نساء بني المصطلق فبلغ عتقهم مائة اهل بيت بتزويجه إياهـا فـلا أعلـم امـرأة أعظم بركة على قومها منها.

الثامنة: سودة بنت زمعة القرشية العامرية رضي الله عنها

قالت عائشة لما أسنت سودة هم رسول الله ﷺ بطلاقهـا فقالـت يـا رسـول سـألتك الله لا تطلقني وأنت في حل من شأني وإنما أريد أن احشر في أزواجك وإنـي قـد وهبـت يـومي لعائشة وإني لا أريد ما تريد النساء فامسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنهـا مـع سـائر مـن توفي عنهن من أزواجه.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة توفيت في آخر زمـان عمـر وقيـل سـنة أربـع وخمسـين ورجحه الوقدي.

التاسعة زينب بنت جحش الأسدية بنت عمة النبي ﷺ.. رضي الله عنها

هذه ترجمتها أنقلها من الإصابة للحافظ ابن حجر.

« زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين زوج النبي ﷺ ، نسبها في ترجمة أخيهـا عبـد الله وأمها أمية عمة النبي ﷺ تزوجهـا الـنبي ﷺ سـنة ثـلاث وقيـل خمـس ونزلـت بسـببها آيـة الحجاب وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة وفيها نزلت: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَـا وَطَـرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ وكان زيد يدعى ابن محمد فلما نزلت ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّـهِ ﴾ وتزوج النبي ﷺ امرأته بعدما انتفى ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من أن الذي يتبنـى غـيره يصير ابنه بحيث يتوارثان إلى غير ذلك وقد وصفت عائشة زينب بالوصف الجميـل في قصـة الإفك وأن الله عصمها بالورع قالت: وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ وكانـت تفخـر على نساء النبي ﷺ بأنها بنت عمته وبأن الله زوجها لـه وهـن زوجهـن أوليـائهن وفي خـبر

تزويجها عند ابن سعد بن طريق الواقدي بسند مرسل: فبينا رسول الله ﷺ يتحدث عند عائشة إذ أخذته غشية فسرى عنه وهو يبتسم ويقول « من يذهب إلى زينب يبشرها ؟ » وتلا ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ الآية قالت عائشة فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها وأخرى هي أعظم وأشرف ما صنع لها. زوجها الله من السماء وقلت هي تفخر علينا بهذا وبسند ضعيف عن ابن عباس لما أخبرت زينب بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت ومن طريق عبد الواحد بن أبي عون قالت زينب يا رسول الله إني والله ما أنا كإحدى نسائك ليست امرأة من نسائك إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها غيري زوجنيك الله من السماء ؟ ومن حديث أم سلمة بسند موصول فيه الواقدي أنها ذكرت زينب فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين عائشة فذكرت نحو هذا قالت أم سلمة وكانت لرسول الله ﷺ معجبة وكان يستكثر منها وكانت صالحة صوامة قوامة صناعا تصدق بذلك كله على المساكين، وذكر أبو عمر كان اسمها برة فلما دخلت على رسول الله ﷺ سماها زينب قال الواقدي ماتت سنة عشرين وأخرج الطبراني من طريق الشعبي أن عبد الرحمن ابن أبزى أخبره أنه صلى مع عمر على زينب بنت جحش وكانت أول نساء النبي ﷺ ماتت بعده وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت قال رسول ﷺ « أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا » قال فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا قالت وكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ومن طريق يحيي بن سعيد عن عمرة عن عائشة نحو المرفوع قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا فعرقنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة وكانت زينب امرأة صناع اليدين فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله وروينا في القطعيات من طريق شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد عن ميمونة بنت الحارث قالت كان رسول الله ﷺ يقسم ما أفاء الله عليه في رهط من المهاجرين فتكلمت زينب بنت جحش فانتهرها عمر فقال رسول الله ﷺ « خل عنها يا عمر فإنها أواهة، وأخرج ابن سعد بسند فيه الواقدي عن القاسم بن محمد قال قالت زينب حين

حضرتها الوفاة إني قد أعددت كفني وإن عمر سيبعث إلى بكفن فتصدقوا بأحدهما وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي [1] فافعلوا ومن وجه آخر عن عمرة قالت بعث عمر بخمسة أثواب بخرها ثوبا ثوبا من الحراني فكفنت منها وتصدقت عنها أختها حمنة بكفنها الذي كانت أعدته قالت عمرة فسمعت عائشة تقول لقد ذهبت حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل وأخرج بسند فيه الواقدي عن محمد بن كعب كان عطاء زينب بنت جحش اثنى عشر ألفا لم تأخذه إلا عاما واحدا فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال من قابل فإنه فتنة ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة فبلغ عمر فقال هذه امرأة يراد بها خير فوقف عليها وأرسل بالسلام وقال بلغني ما فرقت فأرسل بألف درهم تستبقيها فسلكت به ذلك المسلك.

قال الواقدي تزوجها النبي ﷺ وهي بنت خمس وثلاثين سنة وماتت سنة عشرين وهي بنت خمسين ونقل عن عمر بن عثمان الحجبي أنها عاشت ثلاث وخمسين.

العاشرة: صفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية رضي الله عنها

كانت تحت سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق فقتل كنانة يوم خيبر فصارت صفية مع السبي فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ فأعتقها وتزوجها.

قال محمد تقي الدين: تفصيل ذلك كما في الأحاديثالصحيحة أن دحية الكلبي وهو تاجر مشهور جاء إلى النبي ﷺ بعدما نصره الله على يهود خيبر وفتحها عنوة أي بالسيف لا بالصلح جاء دحية الكلبي فقال يا رسول الله أعطنى جارية فقال اذهب إلى السبي وخذ جارية فذهب واختار صفية فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنها زوجة اميرهم ولا تصلح إلا لك ومقصودة أن النبي ﷺ سيكرمها وأن ذلك التاجر ربما باعها فلا تزال تتنقل من يد إلى يد وفي ذلك إهانة لها ونزول من أشرف المنازل إلى أخسها وأحقرها وفي الخبر « ارحموا عزيز قوم زل » فقال لدحية دعها وخذ غيرها فبعث إليها بلالا فجاء بها ومعها ابنة عم لها ومر بهما على قتلى يهود فلطمت ابنة عمها وجهها وحثت التراب على

---

(١) الحقو: الإزار.

رأسها ووجهها أما صفية فكانت عاقلة رزينة فلم تفعل شيئا من ذلك فوصلتا إلى النبي ﷺ وابنة عمها لا تزال تلطم وتصيح فقال لبلالا ماذا صنعت أنزعت الرحمة من قلبك ؟ وقال النبي ﷺ لمن عنده « أبعدوا عني هذه الشيطانة » يعني ابنة عمها. كانت صفية رأت فيما يرى النائم أن القمر نزل من السماء فوقع في حجرها فقصت الرؤيا على زوجها فلطمها لطمة شديدة ظهر أثرها في خدها وفي عينها وقال لها أتتمنين ملك الحجاز يعني محمدا ﷺ فلما رآها النبي ﷺ سألها عن ذلك الأثر فأخبرته ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية ولما أراد النبي ﷺ أن يركب راحلته وضع ركبته على الراحلة وأمر صفية أن تطأ على فخذه لتركب خلفه فلم تشأ أن تضع قدمها على فخذ النبي إجلالا وتعظيما له فوضعت ركبتها على فخذه وركبت وقال بعض الصحابة لبعض ما تظنون أن يفعل بها النبي ﷺ أيتخذها سرية أم يتزوج بها فتكون من أمهات المؤمنين فقال بعضهم إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين وإن لم يحجبها فهي سرية فلما ركب النبي ﷺ وهي خلفه ألقى عليها ثوبه فظهر أنها من أمهات المؤمنين قال الحافظ في الإصابة « فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه فوجد في نفسه فلما كان بالصهباء وهي على بريد من خيبر نزل بها هناك فمشطتها أم سليم وعطرتها قالت أم سنان الأسلمية وكانت من أضوء ما يكون من النساء فدخل على أهله فلما أصبح سألنها عما قال لها فقالت قال لي ما حملك على الامتناع من النزول أولا فقلت خشيت عليك من قرب اليهود فزادها ذلك عنده محبة.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان في سفر فاعتل بعير لصفية وفي إبل زينب بنت جحش فضل فقال لها أن بعيرا لصفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا فقالت أنا أعطي تلك اليهودية فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها قالت زينب حتى يئست منه، أ هـ.

قال محمد تقي الدين: وهذا العقاب الذي عاقب به النبي ﷺ زوجته وابنة عمته زينب هو من عدله ومكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام وفي الصحيح أن بعض أزوج النبي ﷺ قلن لصفية ما أنت إلا يهودية فأخبرت النبي ﷺ فقال لها هلا قلت لهن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد فلقنها النبي ﷺ حجة دامغة لأنها تفتخر بنبيين لا يشاركها فيهما أحد من أزواج النبي ﷺ وهي تشاركهن فيه فشتان ما بينها وبينهن.

وعن عطاء بن يسار قال لما قدمت صفية من خيبر أنزلت في بيت لحارثة بن النعمان فسمع نساء الأنصار فجئن ينظرن إلى جمالها وجاءت عائشة منتقبة فلما خرجت خرج النبي ﷺ على أثرها فقال: كيف رأيت يا عائشة ؟ قالت رأيت يهودية فقال لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها.

وقال أبو عمر بن عبد البر « كانت صفية عاقلة حليمة فاضلة » روينا أن جارية لها أتت عمر فقالت إن صفية تحب السبت وتصل اليهود فبعث إليها فسألها عن ذلك فقالت أما السبت إني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحما فأنا أصلها ثم قالت للجارية ما حملك على هذا قالت الشيطان قالت اذهبي فأنت حرة.

وأخرج ابن سعد بسند حسن عن زيد بن أسلم قال اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه واجتمع إليه نساؤه فقالت صفية بنت حيي: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي فغمزن أزواجه ببصرهن فقال: « مضمضن » فقلن: من أي شيء ؟ فقال: « من تغامزكن بها والله إنها لصادقة ».

اختلف في سنة وفاتها والراجح أنها توفيت سنة اثنتين وخمسين كان عمرها تقريبًا اثنتين وستين سنة.

ملحق في فضائل صفية: ذكر الحافظ في الإصابة في ترجمة أم سنان الأسلمية أن ابن سعد روي عنها قالت: كنت فيمن حضر عرس صفية فمشطناها وعطرناها وكانت من أضوء ما يكون من النساء فأعرس بها رسول الله ﷺ فسألناها فذكرت أنه سر بها ولم ينم تلك الليلة لم يزل يتحدث معها وأصبح فأولم عليها.

الحادية عشرة: زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها

قال الحافظ في الإصابة « أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وكانت يقال لها أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم وكانت تحت عبد الله بن جحش فاستشهد بأحد فتزوجها النبي ﷺ، وكان دخوله بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر ثم لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وماتت.

قال ابن الأثير ذكر ذلك ابن منده في ترجمتها حديث « أولكن لحاقًا بي أطولكن يدًا » الحديث، وقد تقدم في ترجمة زينب بنت جحش وهو بها أليق لأن المراد بلحوقهن به موتهن بعده وهذه ماتت في حياته اهـ.

قال محمد تقي الدين: فجملة النساء اللاتي تزوج بهن النبي ﷺ ودخل بهن وصرن أمهات المؤمنين إحدى عشرة امرأة اثنتان ماتتا قبله وهما خديجة وزينب بنت خزيمة وتسع عشن بعده صلاة الله وسلامه عليه.

أسماء الله الحسنى

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٠] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر »، أخرجاه في الصحيحين ورواه البخاري وأخرجه الترمذي عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله: يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال، ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال:

اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحًا، فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها.

فصل في شرح هذه الأسماء المباركة

قال المحقق أحد أئمة المحدثين في هذا العصر الأخير محمد صديق حسن القنوجي في أول تفسيره المسمى فتح البيان في شرح اسم الجلالة وبيان معناه.

١ - **«الله»**: علم عربي مرتجل جامد عند الأكثر خاص لذات الواجب الوجود تفرد به الباري سبحانه لم يطلق على غيره ولا يشركه فيه أحد.

قال محمد تقي الدين: وهذا هو الصحيح خلافًا لمن قال أنه مشتق لأنه اسم الله سبحانه مع اختلاف قليل في اللفظ في جميع أخوات اللغة العربية كالعبرانية والسريانية والأشورية وغيرهن.

٢-٣- **الرحمن**: من الصفات لم يستعمل لغير الله عز وجل قال أبو علي الفارسي الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم: إنما هو في جهة المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وعن ابن عباس قال هما اسمان أحدهما أرق من الآخر وقيل معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد وقيل غير ذلك والأول أولى وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم.

قال ابن الأثير في النهاية: في أسماء الله تعالى « الرحمن الرحيم » وهما اسمان مشتقان من الرحمة، مثل ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمن خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى فيقال رجل رحيم، ولا يقال رحمن.

٤ - **مالك**: ثم قال القنوجي: قد اختلف العلماء أيهما ملك أو مالك والقراءتان مرويتان عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وذكرهما الترمذي فذهب إلى الأول أبو عبيد والمبرد ورجحه

الزمخشري وإلى الثاني أبو حاتم والقاضي أبو بكر ابن العربي والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الأمور والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله.

٥- **القدوس**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « القدوس » هو الطاهر المنزه عن العيوب، ونقول: من أبنية المبالغة وقد تفتح القاف، وليس بالكثير، ولم يجئ منه إلا قدوس، وسبوح وزروح.

٦- **السلام**: قال: في أسماء الله تعالى « السلام » قيل معناه سلامته مما يلحق الخلق من العيب والفناء والسلام في الأصل السلامة، يقال سلم يسلم سلامة وسلامًا ومنه قيل للجنة (دار السلام) لأنها دار السلامة من الآفات.

٧- قال في أسماء الله تعالى « **المؤمن** » هو الذي يصدق عباده وعده، فهو من الإيمان بمعنى التصديق، أو يؤمنهم في القيامة من عذابه، فهو من الأمان، والأمن ضد الخوف.

قال محمد تقي الدين: الثاني هو الصحيح لقوله تعالى: ﴿ **وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ ولقول النبي ﷺ: « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ».

٨- **المهيمن**: قال ابن كثير في آخر سورة الحشر، (المهيمن) كقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ أي هو الشاهد على خلقه بمعنى رقيب عليهم اهـ.

٩- **العزيز**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « العزيز » هو الغالب القوي الذي لا يغلب، والعزة في الأصل، القوة والشدة والغلبة، تقول عز يعز بالكسر إذا صار عزيزًا وعز يعز بالفتح إذا اشتد.

١٠- **الجبار**: قال في أسماء الله تعالى « الجبار » ومعناه الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي، يقال: جبر الخلق وأجبرهم، وأجبر أكثر، وقيل هو العالي فوق خلقه، وفعال من أبنية المبالغة، ومنه قولهم: نخلة جبارة، وهي العظيمة التي تفوت يد المتناول

ومنه حديث أبي هريرة « يا أمة الجبار ».

١١- **المتكبر**: قال ابن كثير في آخر سورة الحشر: ﴿ **الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ** ﴾ أي الذي لا يليق الجبروت إلا لجلاله، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدم في الصحيح « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدًا منهما عذبته، الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم والمتكبر يعني عن كل سوء.

١٢-١٣-١٤- قال ابن كثير، (هو **الخالق البارئ المصور**) الخلق، التقدير. البرء هو تنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى عالم الوجود، والمصور الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها ويختارها، كقوله تعالى: ﴿ **فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾.

١٥- **الغفار**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الغفار والغفور » وهما من أبنية المبالغة، ومعناهما الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم وأصل الغفر: التغطية. يقال، غفر الله لك غفرًا وغفرانًا ومغفرة. والمغفرة، الباس الله العفو للمذنبين.

١٦- **القهار**: قال: في أسماء الله تعالى « القاهر » هو الغالب جميع الخلائق. يقال قهره يقهره قهرًا فهو قاهر، وقهار للمبالغة. وقهرت الرجل إذا وجدته مقهورًا أو صار أمره إلى القهر، وقد تكرر في الحديث.

١٧- **الوهاب**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الوهاب » الهبة: العطية الخالية عن الإعراض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهابًا، وهو من أبنية المبالغة.

قال محمد تقي الدين: الوهاب الكثير العطاء لخلقه وهو غني عنهم لا يحتاج إلى عوض ولا مكافأة وغيره لا يعطي عطاء إلا وهو يريد مكافأة إما من الله أو من الناس، وعلى هذا لا يستحق أن يسمى في الحقيقة بهذا الاسم إلا الله تعالى.

١٨- **الرزاق**: قال ابن الأثير، في أسماء الله تعالى « الرزاق » وهو الذي خلق الأرزاق وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم. وفعال من أبنية المبالغة. والأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم.

قال محمد تقي الدين: وأهم هذا النوع الهدى والتوفيق إلى العمل الصالح المقبول فإن الإنسان أحوج إلى هداية الله في كل لحظة من لحظات حياته منه إلى الطعام والشراب.

١٩- **الفتاح:** في أسماء الله تعالى « الفتاح » هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده وقيل معناه الحاكم بينهم، يقال: فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما والفاتح الحاكم، والفتاح من أبنية المبالغة.

قال محمد تقي الدين: والدليل على ذلك في معنى الرحمة قوله تعالى في أول سورة فاطر: ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ وفي معنى الحكم قوله تعالى في سورة الأعراف ٨٩: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾.

٢٠- **العليم:** قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى « العليم » هو العالم المحيط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها، وفعيل من أبنية المبالغة. قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾.

٢١- **القابض:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « القابض » هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ويقبض الأرواح عند الممات ومنه الحديث « يقبض الله الأرض ويقبض السماء » أي يجمعها، وقبض المريض إذا توفي، وإذا أشرف على الموت.

٢٢- **الباسط:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الباسط » هو الذي يبسط الرزق لعباده ويوسعه عليهم بجوده ورحمته ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، قال تعالى في سورة البقرة ٢٤٥: ﴿ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾.

٢٣- **الخافض:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الخافض » هو الذي يخفض الجبارين والفراعنة، أي يضعهم ويهينهم، ويخفض كل شيء يريد خفضه، والخفض ضد الرفع ومنه الحديث « أن الله يخفض القسط ويرفعه » القسط: العدل ينزله إلى الأرض مرة ويرفعه أخرى.

٢٤- **الرافع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الرافع » هو الذي يرفع المؤمنين بالأسعاد، وأولياءه بالتقريب وهو مند الخفض.

قال محمد تقي الدين: قال تعالى في سورة البقرة ٢٥٣ في شأن الرسل: ﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ وقال تعالى في سورة يوسف ٧٦: ﴿ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾.

٢٥- **المعز**: قال ابن الأثير: من أسماء الله تعالى « المعز » وهو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده.

قال محمد تقي الدين: وقال تعالى في سورة فاطر ١٠: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ** ﴾. قال تعالى في سورة آل عمران ٢٦: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾.

٢٦- **المذل**: قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى « المذل » هو الذي يلحق الذل بمن يشاء من عباده، وينفي عنه أنواع العز جميعها.

قال محمد تقي الدين: قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وقد صدق الله وعده وأعز المؤمنين في كل زمان ومكان وأذل المعرضين عن الإسلام الذين أعز الله أسلافهم به وأذلهم بالإعراض عنه وذلك مشاهد في هذا الزمان لا يخفى على أحد.

٢٧- **السميع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « السميع » وهو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي فهو يسمع وفعيل من أبنية المبالغة.

وفي دعاء الصلاة « سمع الله لمن حمده » أي أجاب من حمده وتقبله يقال اسمع دعائي » أي أجب، لأن غرض السائل الإجابة والقبول.

٢٨- **البصير**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « البصير » هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها والبصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها نعوت المبصرات.

٢٩- **الحكم**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الحكم والحكيم » هما بمعنى الحاكم وهو القاضي، والحكيم فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، فهو فعيل بمعنى مفعل وقيل الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم ومنه حديث صفة القرآن « وهو الذكر الحكيم » أي الحاكم لكم وعليكم، أو هو المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، فعيل بمعنى مفعل، أحكم فهو محكم ومنه حديث ابن عباس: « قرأت المحكم على عهد رسول الله ﷺ، يريد المفصل من القرآن، لأنه لم ينسخ منه شيء وقيل هو ما لم يكن متشابهًا، لأنه أحكم بيانه بنفسه ولم يفتقر إلى غيره.

٣٠- **العدل**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « العدل » هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً.

٣١- **اللطيف**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « اللطيف » هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه، يقال لطف به وله، بالفتح، يلطف لطفًا إذا رفق به، فأما لطف بالفتح يلطف، فمعناه صغر ودق.

٣٢- **الخبير**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الخبير » هو العالم بما كان وبما يكون. خبرت الأمر أخبره إذا عرفته على حقيقته.

٣٣- **الحليم**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الحليم » هو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستنفزه الغضب عليهم ولكنه جعل لكل شيء مقدارًا فهو منته إليه.

٣٤- **العظيم**: قال القنوجي « العظيم » الكبير الشأن الجليل القدر رفيع الذكر مطاع الأمر.

٣٥- **الغفور**: بمعنى الغفار وقد تقدم شرحه.

٣٦- **الشكور**: قال القنوجي في قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة.

قال محمد تقي الدين: شكر المخلوق أن يكافئه على نعمته عليه بإحسان من قول وعمل بالجوارح وبالقلب كما قال الشاعر:

أفادتكم النعما مني ثلاثة … يدي ولساني والضمير المحجبا

أما شكر الله عبيده فهو تفضله عليهم بالثواب على طاعتهم وهو غني عن طاعتهم.

٣٧- **العلي:** قال ابن الأثير في النهاية: في أسماء الله تعالى « العلي المتعالي » فالعلي الذي ليس فوقه شيء في المرتبة والحكم، فعيل بمعنى فاعل، من علا يعلو، المتعالي: الذي جل عن إفك المفترين وعلا شأنه وقيل: جل عن كل وصف وثناء وهو متفاعل من العلو وقد يكون بمعنى العالي.

قال محمد تقي الدين: وقد تقدم في صدر هذا القسم من سبيل الرشاد من أدلة علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه الذي هو فوق المخلوقات كلها ما يشفي صدور أهل الحق ويشوي قلوب المعطلة كابن عطية الذي يزعم أنه مفسر وهو مكسر جهمي ضال.

٣٨- **الكبير:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المتكبر والكبير » أي العظيم ذو الكبرياء وقيل المتعالي عن صفات الخلق.

٣٩- **الحفيظ:** قال القنوجي في تفسير قوله تعالى في سورة هود ٥٧: ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ إلى رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شيء.

٤٠- **المقيت:** قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى في سورة النساء ٨٥: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا** ﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء، إذا قدر عليه قال الشاعر.

وذي ضغن كففت الضغن عنه … وكنت على مساءته مقيتا

أو شهيدا حافظًا واشتقاقه من القوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

٤١- **الحسيب:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الحسيب » هو الكافي، فعيل بمعنى مفعل، من أحسبني الشيء، إذا كفاني، وأحسبته وحسبته بالتشديد أعطيته ما يرضيه حتى يقول حسبي.

٤٢- **الجليل:** قال ابن الأثير: من أسماء الله تعالى « الجليل » وهو الموصوف بنعوت الجلال، والحاوي جميعها هو الجليل المطلق وهو راجع إلى كمال الصفات، كما أن الكبير

راجع إلى كمال الذات والصفات.

٤٣- **الكريم**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الكريم » هو الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق، والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل.

٤٤- **الرقيب**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى: « الرقيب » وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل.

٤٥- **المجيب**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المجيب » وهو الذي يقابل الدعاء والسؤال بالقبول والعطاء، وهو اسم فاعل من أجاب مجيب.

٤٦- **الواسع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الواسع » هو الذي وسع غناه كل فقير ورحمته كل شيء.

٤٧- **الحكيم**: تقدم معناه في شرح الحكم.

٤٨- **الودود**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الودود » وهو فعول بمعنى مفعول، من الود، المحبة، يقال: وددت الرجل أوده ودا، إذا أحببته، فالله تعالى مودود، أي محبوب في قلوب أوليائه أو هو فعول بمعنى فاعل أي أنه يحب عباده الصالحين، بمعنى أنه يرضى عنهم.

قال محمد تقي الدين: كنت أظن أن ابن الأثير سلفي العقيدة برئ من التعطيل والتجهم لأني رأيت المتأخرين من المشتغلين ينقلون من كتابه شرح غريب الحديث ولما رأيت شرحه لأسماء الله الحسنى وجدته من شرار الجهمية المعطلة فانظر كيف أنكر محبة الله تعالى لخلقه وفسرها بالرضا وغلاة الجهمية ينكرون أيضًا صفة الرضا والسخط قاتلهم الله ونحن نثبت لله تعالى كلما أثبته لنفسه من الصفات والأسماء بدون تشبيه بل كما يليق بجلاله سبحانه لا إله إلا هو.

٤٩- **المجيد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المجيد » و « الماجد » المجد في كلام العرب الشرف الواسع ورجل ماجد، مفضال كثير الخير شريف، والمجيد، فعيل منه للمبالغة.

٥٠- **الباعث**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الباعث » هو الذي يبعث الخلق، أي يحييهم بعد الموت يوم القيامة.

٥١- **الشهيد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الشهيد » هو الذي لا يغيب عنه شيء والشاهد: الحاضر وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل، فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

قال محمد تقي الدين: وقد أسندت الشهادة إلى الله تعالى في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

٥٢- **الحق**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الحق » هو الموجود حقيقة المتحقق وجوده والإهيته والحق ضد الباطل.

٥٣- **الوكيل**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الوكيل » هو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه.

٥٤- **القوي**: قال محمد تقي الدين معناه واضح، قال تعالى: ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعاً ﴾ وكل قوي سوى الله فإن الله هو الذي وهبه تلك القوة وهو في الحقيقة ضعيف قال الله تعالى في سورة الكهف ﴿ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ وقوة الله تعالى من ذاته: ﴿ إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾.

٥٥- **المتين**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المتين » هو القوي الشديد، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة، ولا كلفة ولا تعب، والمتانة: الشدة والقوة، فهو من حيث أنه بالغ القدرة تامها قوي ومن حيث أنه شديد القوة متين.

٥٦- **الولي**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالي (الولي) هو الناصر، وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها.

ومن أسمائه عز وجل « الوالي » وهو مالك الأشياء جميعها، المتصرف فيها. وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم يطلق عليه اسم الوالي.

٥٧- **الحميد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالي « الحميد » أي المحمود علي كل حال فعيل بمعني مفعول، والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمهما، لأنك تحمد الإنسان علي صفاته الذاتية وعلي عطائه ولا تشكره علي صفاته.

٥٨- **المحصي**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالي « المحصي » هو الذي أحصي كل شيء بعلمه وأحاط به، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل. والإحصاء، العد والحفظ.

٥٩- **المبدىء**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالي « المبدىء » هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق مثال.

٦٠- **المعيد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المعيد » هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة.

٦١- **المحيي**: **قال محمد تقي الدين**: المحيي هو الذي يهب الحياة لكل حي.

قال الله تعالى في سورة الحج ٦٦: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ** ﴾ قال البيضاوي في تفسيرها: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ** ﴾ بعد أن كنتم جمادًا عناصر نطفا ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** ﴾ إذا جاء أجلكم ﴿ **ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ** ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها.

٦٢- **المميت**: يفهم معناه من شرح الذي قبله، والذي بيده الإماتة، قال تعالى في سورة المؤمن ٦٨: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾.

٦٣- الحي: قال القاسمي « الحي » أي الباقي لا سبيل عليه للفناء.

٦٤- **القيوم**: الدائم القيام بتدبير الخلق.

٦٥- **الواجد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الواجد » هو الغني الذي لا يفتقر، وقد وجد يجد جدة: أي استغنى غنى لا فقر بعده.

٦٦- **الماجد**: تقدم معناه في شرح المجيد.

٦٧- ٦٨- **الواحد، الأحد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الواحد » هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، قال الأزهري: الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول ما جاءني أحد، والواحد، اسم بني لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذات، في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى.

وقيل، الواحد: هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى، ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له ولا مثيل ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى.

٦٩- **الفرد: قال محمد تقي الدين:** « الفرد » هو الذي تفرد بصفات الكمال لا يشاركه فيها أحد وهو بمعنى الواحد والأحد.

٧٠- **الصمد:** قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الصمد » هو السيد الذي انتهى إليه السؤدد وقيل هو الدائم الباقي، وقيل الذي يصمد في الحوائج إليه، أي يقصد.

٧١- ٧٢- **القادر، والمقتدر، والقدير:** قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى « القادر والمقتدر والقدير » فالقادر اسم فاعل، من قدر يقدر والقدير فعيل منه، وهو للمبالغة والمقتدر مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ.

قال محمد تقي الدين: هذه الأسماء الثلاثة تدل على ما ذكره ابن الأثير. وتدل على أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وقدرته من ذاته وقدرة غيره منه سبحانه.

٧٣- **المقدم:** قال ابن الأثير « قدم » هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في مواضعها، فمن استحق التقديم قدمه.

٧٤- **المؤخر:** قال ابن الأثير، في أسماء الله تعالى « الآخر والمؤخر » فالآخر هو الباقي بعد فناء خلقه كله ناطقه وصامته، والمؤخر هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها، وهو ضد المقدم.

٧٥- **الأول:** قال القاسمي في تفسير أول سورة الحديد « هو الأول » أي السابق على كل موجود، من حيث أنه موجده ومحدثه.

٧٦- **الآخر:** قال القاسمي: « الآخر » أي الباقي بعد فناء كل شيء.

وقد روي الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم، اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، خالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس

فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر. رواه مسلم.

٧٧- **الظاهر**: قال القاسمي في تفسيره، « والظاهر » أي وجوده بالأدلة الدالة عليه، وقال ابن جرير أي الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه.

٧٨- **الباطن**: قال القاسمي في تفسيره « والباطن » أي باحتجابه بذاته وماهيته أو العالم بباطن كل شيء، قال ابن جرير: أي الباطن جميع الأشياء فلا شيء أقرب منه، كما قال: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾.

٧٩- **الوالي**: تقدم معناه في شرح الولي.

٨٠- **المتعالي**: تقدم معناه في شرح العلي.

٨١- **البر**: قال ابن الأثير، في أسماء الله تعالى « البر » هو العطوف على عباده ببره ولطفه. والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البر دون البار والبر بالكسر: الإحسان.

٨٢- **التواب**: الذي يقبل توبة كل تائب مخلص وهو من أبنية المبالغة أي كثير التوبة على من تاب وقال تعالى في أول سورة المؤمن: ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** ﴾ وهذا المعنى في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾.

٨٣- **المنتقم**: الذي يعاقب عباده بذنوبهم حسب مشيئته وإرادته سبحانه.

٨٤- **العفو**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « العفو » هو فعول، من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وهو من أبنية المبالغة.

٨٥- **الرؤوف**: الرحيم — وقيل الرأفة أبلغ من الرحمة.

٨٦- **مالك الملك**: تقدم معناه في شرح الملك.

٨٧- **ذو الجلال والإكرام**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « ذو الجلال والإكرام » الجلال، العظمة، ومنه الحديث، « ألظوا بياذا الجلال والإكرام » اهـ.

ومعنى « ألظوا » أي لازموا ودوموا على قول « ياذا الجلال والإكرام » في دعائكم وابتهالكم إلى الله تعالى.

٨٨- **المقسط**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المقسط » هو العادل يقال أقسط يقسط فهو مقسط، إذا عدل، وقسط ويقسط فهو قاسط إذا جار.

٨٩- **الجامع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الجامع » هو الذي يجمع الخلائق ليوم الحساب، وقيل: هو المؤلف بين المتماثلات، والمتباينات، والمتضادات في الوجود.

قال محمد تقي الدين: والراجح الأول لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾.

٩٠- ٩١- **الغني، المغني**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الغني » هو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء، وكل أحد يحتاج إليه، وهذا هو الغني المطلق، ولا يشارك الله تعالى فيه غيره، ومن أسمائه « المغني » وهو الذي يغني من يشاء من عباده.

٩٢- **المانع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « المانع » هو الذي يمنع عن أهل طاعته، ويحوطهم وينصرهم وقيل يمنع من يريد من خلقه ما يريد، ويعطيه ما يريد، وفيه: « اللهم من منعت ممنوع » أي من حرمته فهو محروم، لا يعطيه أحد غيرك.

٩٣- **الضار**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الضار » هو الذي يضر من يشاء من خلقه، حيث هو خالق الأشياء كلها خيرها وشرها ونفعها وضرها.

٩٤- **النافع**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « النافع » هو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه حيث هو خالق النفع والضر والخير والشر.

٩٥- **النور**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « النور » هو الذي يبصر بنوره ذو العماية ويرشد بهداه ذو الغواية وقيل: هو الظاهر الذي به كل ظهور فالظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورًا.

٩٦- **الهادي**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الهادي » هو الذي بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى ما لابد له منه في بقائه ودوام وجوده.

٩٧- **البديع**: هو الخالق المخترع لا عن مثال سابق فعيل بمعنى مفعل يقال أبدع فهو مبدع اهـ من النهاية.

٩٨- **الباقي**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الباقي » هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهي إليه، ويعبر عنه بأنه أبدي الوجود.

قال محمد تقي الدين: ويفسر معناه قوله تعالي: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾

٩٩- **الوارث**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الوارث » هو الذي يرث الخلائق، ويبقي بعد فنائهم.

١٠٠- **الرشيد**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الرشيد » هو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم، أي هداهم ودلهم عليها، فعيل بمعنى مفعل، وقيل هو الذي تتناسق تدبيراته إلى غاياتها على سنن السداد، من غير إشارة مشير ولا تسديد مسدد.

١٠١- **الصبور**: قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى « الصبور » هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه قريب من معنى الحليم، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم.

١٠٢- **المغيث**: هو الذي يغيث من استغاث به من عباده ويفرج كربه ويجعل له مخرجًا من كل ضيق وكل شدة، كما أغاث خير خلقه محمدًا ﷺ لما استغاث به في غزوة بدر، والاستغاثة من أفضل العبادات فمن استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد كفر، قال تعالى في سورة النمل ٦٢: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾.

انظر تفسير هذه الآية مبسوطًا في الباب الثالث من سورة النمل من القسم الأول من هذا الكتاب.

١٠٣- **القريب**: القريب من عباده بعلمه ولطفه والله تعالى يقرب من عباده كيف يشاء بلا تشبيه ولا تمثيل وليس المراد قرب المسافة، لأن الله تعالى لا يحل في خلقه ولا يحل فيه شيء من خلقه قال تعالى في سورة البقرة ١٨٦: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾.

قال (ك) في تفسير هذه الآية، روي أحمد والشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: « كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال: « يا أيها الناس » أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال محمد تقي الدين: الأسماء التسعة والتسعون التي قصدها النبي ﷺ لا نعلم أعيانها بيقين وقد ذكر الترمذي بدل تسعة وتسعين مائة وواحدًا وزاد بعض من نظم أسماء الله الحسنى شعرًا اسمين آخرين وهما المغيث والقريب فزدتهما أنا فبلغت الأسماء مائة وثلاثة وقد تقدم أن أسماء الله ليست محصورة في التسعة والتسعين ولا في المائة والثلاثة وإنما جمعتها وشرحتها ليتوسل بها إخواننا الموحدون إلى الله الكريم امتثالاً لأمره، وطمعًا في رحمته فإن المبتعدين يتوسلون إلى الله تعالى بذوات المخلوقين والمؤمنون المتبعون لكتاب ربهم وسنة نبيهم إنما يتوسلون إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته وبأعمالهم الصالحة ولذلك قال عمر ﷺ: « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك، فدعوا ودعا العباس عم النبي ﷺ فسقاهم الله تعالى، فالتوسل إنما كان بدعاء النبي ﷺ فلما انتقل إلى دار البقاء توسل عمر إلى الله تعالى بدعاء العباس، وهذا ثابت في صحيح البخاري أعني حديث عمر وتوسله بالعباس ﷺ وأما حديث الأعمى الذي يموه به المبتدعون فلا حجة لهم فيه، لأن الأعمى سأل النبي ﷺ الشفاعة والدعاء في حال حياته وهذا لا نزاع فيه على فرض صحة الحديث وفيه مقال، وقد قتل هذه المسألة بحثًا وتحقيقًا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية في كتابه المسمى التوسل والوسيلة » ودليل التوسل بالأعمال حديث النفر الثلاثة الذين دخلوا في الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فدعا الله كل واحد منهم بصالح عمله ففرج الله عنهم وهذا الحديث مشهور في صحيح البخاري.

وهؤلاء المبتدعون وأكثرهم مشركون يتسترون بحديث الأعمى لعمي بصائرهم وإلا فباب التوسل إلى الله مفتوح، فمحبة النبي ﷺ واتباعه والعمل بسنته ونصر شريعته من أعظم الوسائل إلى الله تعالى فبدل أن يقول المشرك أو المبتدع اللهم إني أتوسل إليك

بأنبيائك أو أوليائك يتوب إلى الله تعالى من الشرك والبدعة ويوحد الله ويتبع سنة نبيه ﷺ ويقول بصدق اللهم أني أتوسل إليك بتوحيدي لك واتباعي لسنة نبيك فيكون على الصراط المستقيم ويخرج من الظلمات إلى النور ولا ينكر ذلك عليه أحد.

والله يهدينا جميعًا إلى صراطه المستقيم، ويبعدنا عن طريق أصحاب الجحيم.

قال محمد تقي الدين: وقفت على أسماء الله الحسنى منظومة شعرًا في قصيدتين كل منهما اشتملت عليها أحداهما تنسب إلى الدمياطي ولا أدري من هذا الدمياطي وفي أسماء حفاظ الحديث رجل يسمى الدمياطي نسبة إلى مدينة مشهور في مصر ولا أدري هل هو الذي نظم هذه القصيدة فإن قوله في أولها في البيت الثالث منها:

وبعد روينا أن لله تسعة — وتسعين اسمًا فضلها قد تحصلا

يدل على أنه هو الحافظ الدمياطي، ولهذه القصيدة مزية على القصيدة الثانية التي سأذكرها وهي أن ناظمها جعل كل شطر يتضمن اسمًا واحدًا من أسماء الله الحسنى مثال ذلك قوله في ذكر الاسم الأول « الله » والثاني « الرحمن ».

من الله أرجو أمن قلب توجلا — فبالأمن يا رحمن لا تبق موجلا

غير أن هذه القصيدة ليس فيها انسجام ولا بلاغة فلذلك تركت نقلها والقصيدة الثانية للعلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي رحمه الله، وقد عزمت على نقلها تسهيلاً لحفظ أسماء الله الحسنى، وهذا نصها:

إذا نابني خطب وضاق به صدري — تلافاه لطف الله من حيث لا أدري

ولاسيما إن جئته متوسلا — بأسمائه الحسنى المعظمة القدر

فيا الله يا رحمن أني لذو فقر — وأنت رحيم مالك الخلق والأمر

بقدسك قدوس سلام ومؤمن — مهيمن قدسني لدى السر والجهر

عزيز وجبار ويا متكبر — ويا خالق الخلق اكفني أزمة الدهر

ويا بارئ مالي سواك مصور — وغفار يا قهار جبرا لذي كسر

وهب لي يا وهاب رزاق مطلبي — وفتاح أشرق يا عليم دجى فكر

ويا قابض يا باسط خافض العدا ويا رافع ارفع باتباع الهدى ذكر
معز مذل يا سميع بصير جد على ما ترى من فادح العيب بالستر
ويا حكم عدل لطيف خبير ما لنا وزر ألاك في الضيق والعسر
حليم عظيم يا غفور شكور لن يخيب امرؤ يرجوك للحلم والغفر
على كبير يا حفيظ مقيت هب لنا حفظك الأحمى لدي الحادث الوعر
حسيب جليل يا كريم رقيب من سواك نرجيه لخلة ذي فقر
مجيب أجب يا واسع يا حكيم يا ودود دعا داع لفضلك مضطر
مجيد فجد يا باعث يا شهيد بالذي نرتجي يا حق من جودك الغمر
وكيل قوي يا متين ولي كن وليا لعبد من خطاياه في أسر
حميد ومحصي مبدئ ومعيد لم يزل منك جود ينتحينا، بلا حصر
ومحي مميت حي قيوم واجد ويا ماجد لا تولني الخزي في النشر
ويا أحد نرجوك يا صمد إذا تضيق بنا يا قادر فسحة العمر
ومقتدر ارفع يا مقدم رتبتي مؤخر أخر كل من يبتغي ضري
ويا أول يا آخر ظاهر ويا طن وال اجذبني إلى حضرة الطهر
ويا متعال بر تواب جد وثب ومنتقم حل بيننا وذوي الشر
عفو رؤوف مالك الملك أنت ذو الجلال والإكرام اعف عن كل ما وزر
ومقسط جامع غني فأغننا غني القلب يا مغني لنغني عن الوفر
ويا مانع يا ضار يا نافع اهدنا بنورك يا نور وهاد إلى اليسر
بديع وباق وارث يا رشيد يا صبور أتح لي الرشد للشكر والصبر
بأسمائك الحسنى دعوناك نبتغي رضاك ولطفا في الحياة وفي القبر
وفي النشر ثم الحشر والموقف الذي تحاسب فيه الخلق يا واسع البر
وفي حال أخذ الصحف والوزن بعدها كذلك في حال المرور على الجسر

وعافيـــة دينـــا ودنيـــا ورحمـــة بفضـلك في الـدارين يـا واسـع الـبر
وختمـا بحسـنى مـع جـوار نبينـا محمـد المحمـود في موقـف الحشـر
عليـــه صـــلاة الله ثـــم ســـلامه بـلا منتهـى والآل مـع صـحبه الغـر
وللنــاظم اغفــر يــا إلهــي وأهلــه وأحبابــه واســترهم دائــم الســتر
وقارئهـــا والمســـلمين جميعهم ولله ربـــي دائـــم الحمـــد والشـــكر

جيوش الشعر

قال محمد تقي الدين: بدأت هذا القسم بالجيوش الإسلامية للإمام الحافظ ابن القيم هي نثر وأختمه بجيوش الشعر لأئمة مختلفين في أوطانهم وأزمانهم متفقين على العقيدة الحنيفية.

وأنقل هذه القصائد من المجموعة المفيدة، التي جمعها العالم السلفي الشاعر الأديب علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في نحو ١٣٤١ ولما وصلت أنا إلى الدورة في نحو سنة ١٣٤٣ وهبني ابنه الشيخ حسين بن علي وسائر الورثة خزانة كتب والدهم ولا يزال عندي أكثرها وبعضها تلف بكثرة التنقل الذي أنا مبتلى به طول عمري منذ الصبا إلى أقصى الشيخوخة فرحم الله الشيخ عليا رحمة واسعة وبارك في أبنائه وأحفاده وجزى الله من طبع هذه المجموعة ومن بعثها إلي وهو الصديق الصادق الشيخ عبد الله الغنيمان، بارك الله في حياته.

« القصيدة الأولى »

أثبتها مختصرة لأني رأيت أن أحذف منها ما يتعلق بفروع المالكية وهي للإمام عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي:

يـــا منـــزل الآيـــات والفرقـــان بـــيني وبينـــك حرمـــة القـــرآن
اشـــرح بـــه صـــدري لمعرفـــة الهـــدى واعصـــم بـــه قلـــبي مـــن الشـــيطان
واحطـط بـه وزري، وأخلـص نـيتي واشـدد بـه أزري، وأصـلح شـأني
يســـر بـــه أمـــري واقـــض مـــآربي وأجـــر بـــه جســـدي مـــن الـــنيران
واكشـف بـه ضـري، وحقـق تـوبتي أربـــح بـــه بيعـــي بـــلا خســـران

طهر به قلبي، وصف سريرتي أجمل به ذكري، وأعل مكاني
واقطع به طمعي، وشرف همتي كثر به ورعي وأحي جناني
أسهر به ليلي، وأظم جوارحي أسبل بفيض دموعها أجفاني
أمزجه يا ربي بلحمي مع دمي واغسل به قلبي من الأضغان
أنت الذي صورتني، وخلقتني وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني، ورحمتني وجعلت صدري واعي القرآن
أنت الذي أطعمتني، وسقيتني من غير كسب يد ولاد كان
وجبرتني، وسترتني، ونصرتني وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني، وحبوتني وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة وعطفت منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسنًا وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت ذكرى في البرية شائعًا حتى جعلت جميعهم إخواني

ومضى في الدعاء إلى أن قال في القرآن:

ولأتلون حروف وحيك في الدجى ولأحرقن بنوره شيطاني
أنت الذي، يارب، قلت حروفه ووصفته بالوعظ والتبيان
ونظمته ببلاغة أزلية تكييفها يخفي على الأذهان
وكتبت في اللوح الحفيظ حروفه من قبل خلق الخلق في أزمان
فالله ربي، لم يزل متكلمًا حقا إذا ما شاء ذو إحسان
نادى بصوت حين كلم عبده موسى، فأسمعه بلا كتمان
وكذا ينادي في القيامة ربنا جهرا، فيسمع صوته الثقلان
أن يا عبادي، أنصتوا لي، واسمعوا قول الإله المالك الديان
هذا حديث نبينا عن ربه صدقًا بلا كذب ولا بهتان

لسنا نشبه صوته بكلامنا، ... إذ ليس يدرك وصفه بعيان

لا تحصر الأوهام مبلغ ذاته ... أبدًا، ولا يحويه قطر مكان

وهو المحيط بكل شيء علمه ... من غير إغفال ولا نسيان

سبحانه ملكًا على العرش استوى ... وحوى جميع الملك والسلطان

وكلامه القرآن أنزل آية ... وحيا على المبعوث من عدنان

صلى عليه الله خير صلاته ... ما لاح في فلكيهما القمران

هو جاء بالقرآن من عند الذي ... لا تعتريه نوائب الحدثان

تنزيل رب العالمين ووحيه ... بشهادة الأحبار والرهبان

وكلام ربي لا يجيء بمثله ... أحد، ولو جمعت له الثقلان

وهو المصون من الأباطل كلها ... ومن الزيادة فيه والنقصان

من كان يزعم أن يباري نظمه ... ويراه مثل الشعر والهذيان

فليأت منه بسورة أو آية ... فإذا رأى النظمين يشتبهان

فلينفرد باسم الألوهة وليكن ... رب البرية، وليقل سبحاني

فإذا تناقض نظمه فليلبسن ... ثوب النقيصة صاغرًا بهوان

أو فليقر بأنه تنزيل من ... سماه في نص الكتاب مثاني

لا ريب فيه بأنه تنزيله ... وبداية التنزيل في رمضان

الله فصله، وأحكم آية ... وتلاه تنزيلا بلا ألحان

هو قوله، وكلامه وخطابه ... بفصاحة وبلاغة وبيان

هو حكمه، هو علمه، هو نوره ... وصراطه الهادي إلى الرضوان

جمع العلوم دقيقها وجليلها ... فبه يصول العالم الرباني

قصص على خير البرية قصة ... ربي فأحسن أيما إحسان

كلماته منظومة وحروفه ... بتمام ألفاظ وحسن معان

وأبان فيه حلاله وحرامه ونهى عن الآثام والعصيان
من قال أن الله خالق قوله فقد استحل عبادة الأوثان
من قال فيه عبارة وحكاية فغدا يجرع من حميم آن
من قال أن حروفه مخلوقة فالعنه ثم اهجره كل أوان
لا تلق مبتدعًا ولا متزندقًا إلا بعبسة مالك الغضبان
والوقف في القرآن خبث باطل وخداع كل مذبذب حيران
قل غير مخلوق كلام الهنا واعجل، ولاتك في الإجابة واني
أهل الشريعة أيقنوا بنزوله والقائلون بخلقه شكلان
وتجنب اللفظين، أن كليهما ومقال جهم عندنا سيان
يا أيها السني، خذ بوصيتي واخصص بذلك جملة الإخوان
واقبل وصية مشفق متودد واسمع بفهم حاضر يقظان
كن في أمورك كلها متوسطًا عدلاً بلا نقص ولا رجحان
واعلم بأن الله رب واحد متنزه عن ثالث أو ثان
الأول المبدي بغير بداية والآخر المفني وليس بفاني
وكلامه صفة له وجلالة منه بلا أمد ولا حدثان

ثم مضى إلى أن قال:

والله يومئذ يجيء لعرضنا مع أنه كل وقت دان
والأشعري[1] يقول يأتي أمره ويعيب وصف الله بالإتيان
والله في القرآن أخبر أنه يأتي بغير تنقل وتدان
وعليه عرض الخلق يوم معادهم للحكم كي يتناصف الخصمان

(١) قال محمد تقي الدين: المراد بالأشعري هنا من ينتسب زورًا وبهتانًا إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله من المتأخرين.

والله يومئذ نراه كما نرى ... قمرًا بدا للست بعد ثمان

ومضى إلى أن قال:

قل للطبيب الفيلسوف بزعمه ... أن الطبيعة علمها برهاني

أين الطبيعة عند كونك نطفة ... في البطن إذ مشجت به الماآن ؟

أين الطبيعة حين عدت عليقة ... في أربعين وأربعين ثوان ؟

أين الطبيعة عند كونك مضغة ... في أربعين وقد مضى العددان ؟

أترى الطبيعة صورتك مصورًا ... بمسامع ونواظر وبنان

أترى الطبيعة أخرجتك منكسا ... من بطن أمك واهي الأركان

أم فجرت لك من لبان ثديها ... فرضعتها حتى مضى الحولان

أم صيرت في والديك محبة ... فهما بما يرضيك مغتبطان

يا فيلسوف لقد شغلت عن الهدى ... بالمنطق الرومي واليوناني

ومضى إلى أن قال:

لا تلتمس علم الكلام فإنه ... يدعو إلى التعطيل والهيمان

لا يصحب البدعي إلا مثله ... تحت الدخان تأجج النيران

علم الكلام. وعلم شرع محمد ... يتغايران، وليس يشتبهان

أخذوا الكلام عن الفلاسفة الألي ... جحدوا الشرائع، غرة وأماني

حملوا الأمور على قياس عقولهم ... فتبلدوا كتبلد الحيران

مرجيهم يزري على قدريهم ... والفرقتان لدى كافرتان

ومضى في ذم المتكلمين إلى أن قال:

دع أشعريهم ومعتزليهم ... يتناقرون تناقر الغربان

كل يقيس بعقله سبل الهدى ... ويتيه تيه الواله الهيمان

فالله يجزيهم بما هم أهله ... وله الثنا عن قولهم براني

ومضى إلى أن قال:

أمرر أحاديث الصفات كما أتت ... من غير تفسير ولا هذيان
هو مذهب الزهري ووافق مالك ... وكلاهما في شرعنا علمان
لله وجه لا يحد بصورة ... ولربنا عينان ناظرتان
ولد يدان كما يقول إلهنا ... ويمينه جلت عن الأيمان
كلتا يدي ربي يمين وصفها ... فهما على الثقلين منفقتان
كرسيه وسع السموات العلى ... والأرض وهو يعمه القدمان
والله يضحك لا كضحك عبيده ... والكيف ممتنع على الرحمان
والله ينزل كل آخر ليلة ... لسمائه الدنيا بلا كتمان
فيقول هل من سائل فأجيبه ... فأنا القريب أجيب من ناداني
حاشا الإله بأن تكيف ذاته ... فالكيف والتمثيل منتفيان
والأصل أن الله ليس كمثله ... شيء، تعالى الرب ذو الإحسان
وحديثه القرآن وهو كلامه ... صوت وحرف ليس يقترفان
لسنا نشبه ربنا بعباده ... رب وعبد كيف يشتبهان ؟
فالصوت ليس بموجب تجسيمه ... إذ كانت الصفتان تختلفان

ثم قال:

إني أقول فأنصتوا لمقالتي ... يا معشر الخلطاء والإخوان
إن الذي هو في المصاحف مثبت ... بأنامل الأشياخ والشبان
هو قول ربي آية وحروفه ... ومدادنا والرق مخلوقان
من قال في القرآن ضد مقالتي ... فالعنه كل إقامة وأذان
هو في المصاحف والصدور حقيقة ... أيقن بذلك أيما إيقان

ومضى إلى أن قال:

تعس العمى أبو العلاء فإنه قد كان مجموعًا له العميان
ولقد نظمت قصيدتين بهجوه أبيات كل قصيدة مئتان
والآن أهجو الأشعري وحزبه وأذيع ما كتموا من البهتان
يا معشر المتكلمين عدوتم عدوان أهل السبت والحيتان
كفرتم أهل الشريعة والهدى وطعنتم بالبغي والعدوان
فلأنصرن الحق حتى أنني أسطو على ساداتكم بطعاني
الله صيرني عصا موسى لكم حتى تلقف إفككم ثعباني
بأدلة القرآن أبطل سحركم وبه أزلزل كل من لاقاني
هو ملجئ هو مدرئي هو منجئي من كيد كل منافق خوان
إن حل مذهبكم بأرض أجدبت أو أصبحت قفرًا بلا عمران
والله صيرني عليكم نقمة ولهتك ستر جميعكم أبقاني
أنا في حلوق جميعكم عود الشجا أعيا أطبتكم غموض مكاني
أنا حية الوادي، أنا أسد الشرى أنا مرهف ماضي الغرار يماني

ومضى إلى أن قال يخاطبهم:

آثرتم الدنيا على أديانكم لا خير في دنيا بلا أديان
وفتحتم أفواهكم وبطونكم فبلعتم الدنيا بغير توان
كذبتم أقوالكم بفعالكم وحملتم الدنيا على الأديان
قراؤكم قد أشبهوا فقهاءكم فئتان للرحمن عاصيتان
يتكالبان على الحرام وأهله فعل الكلاب بجيفة اللحمان
يا أشعرية هل شعرتم أنني رمد العيون وحكة الأجفان
أنا في كبود الأشعرية قرحة أربو فأقتل كل من يشناني

ولقد برزت إلى كبار شيوخكم … فصرعت منهم كل من ناواني
وقلبت أرض حجاجهم ونشرتها … فوجدتها قولاً بلا برهان
والله أيدني وثبت حجتي … والله من شبهاتهم نجاني
والحمد لله المهيمن دائمًا … حمدًا يلقح فطنتي وجناني
أحسبتم يا أشعرية أنني … ممن يقعقع خلفه بشناني
أفتستر الشمس المضيئة بالسها … أم هل يقاس البحر بالخلجان
عمري لقد فتشتكم فوجدتكم … حمرًا بلا عنن ولا أرسان
أحضرتكم وحشرتكم وقصدتكم … وكسرتكم كسرًا بلا جبران
أزعمتم أن القرآن عبارة … فهما كما تحكون قرآنان
إيمان جبريل وإيمان الذي … ركب المعاصي عندكم سيان
أهذا الجويهر والعريض بزعمكم … أهما لمعرفة الهدى أصلان
من عاش في الدنيا ولم يعرفهما … وأقر بالإسلام والفرقان
أفمسلم هو عندكم أم كافر … أم عاقل، أما جاهل، أم واني
عطلتم السبع السموات العلي … والعرش أخليتم من الرحمن

ومضى إلى أن قال:

أشعرتم يا أشعرية أنني … طوفان بحر، أيما طوفان
أنا همكم أنا غمكم أنا سقمكم … أنا سمكم في السر والإعلان
أذهبتم نور القرآن وحسنه … من كل قلب وإله لهفان

ومضى إلى أن قال:

يا أشعرية يا أسافلة الورى … يا عمي يا صم بلا آذان
إني لأبغضكم وأبغض حزبكم … بغضًا أقل قليله أضناني
لو كنت أعمى المقلتين لسرني … كيلا يرى إنسانكم إنساني

ومضى إلى أن قال:

أنـا ثمـرة الأحبـاب حنظلـة العـدى ... أنـا غصـة في حلـق مـن عـاداني

وأنـا المحـب لأهـل سـنة أحمـد ... فأنـا الأديـب الشـاعر القحطـاني

ومضى إلى أن قال:

يـا أشـعرية، يـا جميـع مـن ادعـى ... بـدعا وأهـواء بـلا برهـان

جـاءتكم سـنية مأمونـة ... مـن شـاعر ذرب اللسـان معـان

ومضى إلى أن قال:

هـي للـروافض درة عمريـة ... تركـت رؤوسـهم بـلا آذان

هـي للمـنجم والطبيـب منيـة ... فكلاهمـا ملقـان مختلفـان

هـي في رؤوس المـارقين شـقيقة ... ضـربت لفـرط صـداعها الصـدغان

هـي في القلـوب الأشـعرية كلـهم ... صـاب وفي الأجسـاد كالسـعدان

لكـن لأهـل الحـق شـهدا صـافيًا ... أو تمـر يشـرب ذلـك الصـيحاني

وأنـا الـذي حبرتهـا وجعلتهـا ... منظومـة كقلائـد المرجـان

ونصـرت أهـل الحـق مبلـغ طـاقتي ... وصـفت كـل مخـالف ضـعفان

أبياتهـا مثـل الحـدائق تجـتني ... سمعًـا ولـيس يملـهن الجـاني

ومضى إلى أن قال في الختام:

صـلى الإلـه علـى الـنبي محمـد ... مـا نـاح قمـري علـى الأغصـان

وعلـى جميـع بناتـه ونسـائه ... وعلـى جميـع الصـحب والإخـوان

بـالله قولـوا كلمـا أنشـدتم ... رحـم الإلـه صـداك يـا قحطـاني

قال محمد تقي الدين: قد علمت أيها القارئ فيما تقدم أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله كان على عقيدة السلف الصالح وقد أنكر عليه بعض الأئمة المحققين مسألة واحدة أو مسألتين والكمال لله ؟ وقد صرح رحمة الله عليه أنه كان على عقيدة أحمد بن حنبل رحمه الله وكتبه ناطقة بما ذكرت وهي: مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، والإبانة عن

أصول الديانة، وقد قرأت هذين الكتابين وكتاب الموجز ذكره ابن القيم في كتابه الجيوش الإسلامية، ولم أطلع عليه، وكذلك قدماء أصحابه أما أشعرية هذا الزمان فهم الذين ينطبق عليهم ويصدق عليهم هجو القحطاني.

قال الشيخ على بن سليمان القميصي الذي تقدم ذكره في تقريظ القصيدة القحطانية وأجاد:

يا من يروم نجاته يوم الجزا والفوز بالجنات والرضوان
اسمع وصية ناصح يهدي إلى دين الإله وسنة العدنان
قرت بها عين الشريعة وارتوت منها رياض الفضل والإحسان
وتفجرت منها ينابيع الهدى فجلت صدا التعطيل والبهتان
وبدا لنا منها صباح مسفر لكن يراه من له عينان
فاتبع مسالكها وسر في ضوئها واحذر سلوك مناهج الشيطان
نظمت لآلئها قريحة جهبذ حاز الفخار بحلبة الفرسان
وسما على أقرانه بفخاره فلك العلي والفخر يا قحطاني
فلقد حميت حمى الشريعة بعدما مدت إليه يد الخبيث الجاني
وضربت هام المعتدي بمهند عضب، صقيل الشفرتين يماني
فتركته متجندلاً في ضحضح والحق يزهق كل ذي بطلان
ولقد حرصت على الورى وهديتهم لمناهج الإيمان والعرفان
فجزاك رب العرش خير جزائه وحباك في الفردوس بالولدان
وصلاة ربي والسلام مضاعف لمحمد والآل كل زمان

« الشهب المرمية على المعطلة والجهمية »

للشيخ الفاضل: أحمد بن مشرف

نفيتم صفات الله فالله أكمل ... فسبحانه عما يقول المعطل

زعمتم بأن الله ليس بسمتو ... على عرشه والاستوا ليس يجهل

فقد جاء في الأخبار في غير موضع ... بلفظ استوى لا غير يا متأول

وقد جاء في إثباته عن نبينا ... من الخبر المأثور ما ليس يشكل

فصرح أن الله جل جلاله ... على عرشه منه الملائك تنزل

يخافونه من فوقهم وعروجهم ... إليه وهذا في الكتاب مفصل

وتعرج حقًا روح من مات مؤمنًا ... إليه فتحظى بالمنى ثم ترسل

وبالمصطفى أسرى إلى الله فارتقى ... على هذه السبع السموات في العلو

ومنه دنا الجبار حقا فكان قاب ... قوسين أو أدنى كما هو منزل

وفي ذا حديث في صحيح محمد ... صحيح صريح ظاهر لا يؤول

وقد رفع الله المسيح بن مريم ... إليه، ولكن بعد ذا سوف ينزل

فيكسر صلبان النصارى بكفه ... وما دام حيا للخنازير يقتل

وليس له شرع سوى شرع أحمد ... فيقضي به بين الأنام ويعدل

وزينب زوج المصطفى افتخرت على ... بقية أزواج النبي بلا غلو

فقالت تولى الله عقدي بنفسه ... فزوجني من فوق سبع من العلو

وأن سفيري روحه وكفى بذا ... لزينب فخرا شامخًا، فهو أطول

ولما قضى سعد الرضى في قريظة ... بأن يسترقوا والرجال تقتل

وأمضى رسول الله في القوم حكمه ... لقد قال ما معناه إذ يتأمل

ألا إن سعدًا قد قضى فيهم بما ... قضى الله من فوق السموات فافعلوا

وقد صح أن الله في كل ليلة ... إذا ما بقي ثلث من الليل ينزل

إلى ذي السما الدنيا ينادي عباده ... إلى أن يكون الفجر في الأفق يشعل

يناديهم هل تائب من ذنوبه ... فإني لغفار لها متقبل

وهل منكم داع وهل سائل لنا ... فإني أجيب السائلين وأجزل

وقد فطر الله العظيم عباده ... على أنه من فوقهم فلهم سلوا

لهذا تراهم يرفعون أكفهم ... إذا اجتهدوا عند الدعاء إلى العلو

أقروا بهذا الاعتقاد جبلة ... ودانوا به ما لم يصدوا ويخذلوا

على ذا مضى الهادي النبي وصحبه ... وأتباعهم خير القرون وأفضل

فأخلق قوم آخرون فحرفوا ... نصوص كتاب الله جهلاً وأولوا

فجاؤوا بقول سيء سره وما ... بدا به يزهو بالآلي مكلل

هم عطلوا وصف الإله وأظهروا ... بذلك تنزيهًا له وهو أكمل

ومن نزه الباري بنفي صفاته ... فما هو إلا جاحد ومعطل

فيا أيها النافي لأوصاف ربه ... لقد فاتك النهج الذي هو أمثل

تحيد عن الذكر الحكيم ونصه ... وتزور عن قول الرسول وتعدل

وتنفي صفات الله بعد ثبوتها ... بنص من الوحيين ما فيه مجمل

إذا جاء نص محكم في صفاته ... جحدت له أو قلت هذا مؤول

ألا تقتفي آثار صحب محمد ... فمنهاجهم أهدى وأنجى وأفضل

فما مذهب الأخلاف أعلم بالهدى ... من القوم لو أنصفت أو كنت تعدل

ولكنه من بعض ما أحدث الورى ... ومن يبتدع في الدين فهو مضلل

« فصل في اعتقاد السلف الصالح »

ولكننـــا والحمـــد لله لم نــــزل / على قـول أصحاب الرسـول نعـول
نقـــر بـــأن الله فـــوق عبـــاده / علـى عرشـه، لكنما الكيـف يجهـل
وكـــل مكـــان فهـــو فيـــه بعلمـــه / شهيد على كـل الـورى لـيس يغفـل
ومـا أثبـت البـاري تعـالى لنفسـه / من الوصف أو أبداه من هـو مرسـل
فنثبتـــــه لله جـــــل جلالـــــه / كمـــا جـــاء لا ننفـــي ولا نتـــأول
هـو الواحـد الحي العظيـم لـه البقـا / مليـك، يـولي مـن يشـاء، ويعـزل
سميـــع بصـــير، قـــادر، مـــتكلم / علـــيم مريـــد، آخـــر وهـــو أول
تنـــزه عـــن نـــد وولـــد، ووالـــد / وصـــاحبة، فـــالله أعلـــى وأكمـــل
ولـــيس كمثـــل الله شـــيء ومـــا لـــه / شـــبيه، ولا نـــد، بـــرك يعـــدل
وإن كتـــاب الله مـــن كلماتـــه / ومـــن وصـــفه الأعلـــى حكـيم منـزل
فلـيس بمخلـوق ولا وصـف حـادث / فينفـــي، ولكـــن محكـــم لا يبـــدل
هـــو الـــذكر متلـــو بألســـنة الـــورى / وفي الصدر محفوظ وفي الصحف مسجل
فألفاظـــه ليســـت بمخلوقـــة ولا / معانيه، فـاترك قـول مـن هـو مبطـل
وقـد أسمـع موسـى الـرحمن كلامـه / علـى طـور سـينا، والإلـه يفضـل
وللطـــور مولانـــا تجلـــى بنـــوره / فصـــار لخـــوف الله دكـــا يزلـــزل
وإن علينـــا حـــافظين ملائكـــا / كرامًـــا بســـكان البســـيطة وكلـــوا
فيحصـــون أقـــوال ابـــن آدم كلـــها / وأفعالـــه طـــرا، فـــلا شـــيء يهمـــل
ولا حـــي غـــير الله يبقـــى وكـــل مـــن / ســـواه لـــه حـــوض المنيـــة منهـــل
وإن نفـــوس العـــالمين بقبضـــها / رســـول مـــن الله العظـــيم موكـــل
ولا نفـس تفنـى قبـل إكمـال رزقهـا / ولكـــن إذا تم الكتـــاب المؤجـــل
وسـيان مـنهم مـن ودي حتـف أنفـه / ومـــن بالظبـــا والســـمهرية يقتـــل

وإن سؤال الفاتنين محقق ... لكن صريع في الثرى حين يجعل
يقولان ماذا كنت تعبد ما الذي ... تدين ومن هذا الذي هو مرسل
فيارب ثبتنا على الحق واهدنا ... إليه، وأنطقنا به حين نسأل
وإن عذاب القبر حق، وروح من ... وري في نعيم أو عذاب ستجعل
فأرواح أصحاب السعادة نعمت ... بروح وريحان، وما هو أفضل
وتسرح في الجنات تجني ثمارها ... وتشرب من تلك المياه، وتأكل
ولكن شهيد الحرب حي منعم ... فتنعيمه للروح والجسم يحصل
وأرواح أصحاب الشقاء مهانة ... معذبة للحشر والله يعدل
وإن معاد الروح والجسم واقع ... فينهض من قد مات حيا يهرول
وصيح بكل العالمين فأحضروا ... وقيل قفوهم للحساب ليسألوا
فذلك يوم لا تحد كروبه ... بوصف فإن الأمر أدهى وأهول
يحاسب فيه المرء عن كل سعيه ... وكل يجازي بالذي كان يعمل
وتوزن أعمال العباد جميعها ... وقد فاز من ميزان تقواه يثقل
وفي الحسنات الأجر يلفي مضاعفًا ... وبالمثل تجزي السيئات وتعدل
ولا يدرك الغفران من مات مشركًا ... وأعماله مردودة ليس تقبل
ويغفر غير الشرك ربي لمن يشا ... وحسن الرجا والظن بالله أجمل
وإن جنان الخلد تبقى ومن بها ... مقيمًا على طول المدى ليس يرحل
أعدت لمن يخشى الإله ويتقي ... ومات على التوحيد فهو مهلل
وينظر من فيها إلى وجه ربه ... بذا نطق الوحي المبين المنزل
وأن عذاب النار حق وإنها ... أعدت لأهل الكفر مثوى ومنزل
يقيمون فيها خالدين على المدى ... إذا نضجت تلك الجلود تبدل
ولم يبق بالإجماع فيها موحد ... ولو كان ذا ظلم يصول ويقتل

وإن لخــير الأنبيـــاء شـــفاعة لـدى الله في فصـل القضـاء فيفصـل
ويشـفع للعاصـين مـن أهـل دينـه فيخـرجهم مـن نـاره، وهـي تشـعل
فيلقــون في نهــر الحيــاة فينبتــوا كمـا في حميـل السـيل ينبـت سـنبل
وإن لـــه حوضًــا هنيئًــا شــرابه من الشهد أحلى فهو أبيض سلسـل
يقــدر شــهرًا في المســافة عرضــه كأيلـة مـن صنعا وفي الطـول أطـول
وكيزانـــه مثـــل النجـــوم كـــثيرة وواردهُ حقًّـــا أغـــر محجـــل
مـــن الأمـــة المستمســـكين بدينـــه وعنـــه ينحـــى محـــدث ومبـــدل
فيـارب، هـب لـي شـربة مـن زلالـه بفضـلك، يـا مـن لم يـزل يتفضـل

« فصل في الإيمان بالقضاء والقدر وما يتعلق بذلك »

وبالقـــدر الإيمـــان حـــتم وبالقضـــا فمـا عنهمـا للمـرء في الـدين معـدل
قضى ربنـا الأشـياء مـن قبـل كونهـا وكــل لديــه في الكتــاب مســجل
فمـــا كـــان مـــن خـــير وشـــر فكلـــه مـــن الله والـــرحمن ومـــا شـــاء يفعـــل
فبالفضل يهدي من يشاء مـن الـورى وبالعـدل يـردي مـن يشـاء ويخـذل
ومـــا العبـــد مجبـــورًا ولـــيس مخـــيرًا ولكن لـه كسـب ومـا الأمـر مشـكل
وإن ختــام المرســـلين محمـــدًا إلـي الـثقلين الجـن والإنـس مرسـل
بأفضـــل ديـــن للشـــرائع ناســـخ ولا يعتريـــه النســـخ مـــا دام يبـــذل
فمـــا بعـــده وحـــي مـــن الله نـــازل علـــى بشـــر، والمـــدعي متقـــول
ونعتقـــد الإيمـــان قـــول ونيـــة وفعـــل إذا مـــا وافـــق الشـــرع يقبـــل
ويـــنقص أحيانًـــا بنقصـــان طاعـــة ويـــزداد إن زادت فينمـــو ويكمـــل
ودونـك مـن نظـم القـريض قصـيدة وجيـــزة ألفـــاظ جناهـــا مـــذلل
بديعـــة حســـن يشـــبه الـــدر نظمهـــا ولكنـــه أحلـــى وأغلـــى وأجمـــل
عقيـــدة هـــل الحـــق والســـلف الألى علـــيهم لمـــن رام النجـــاة، المعـــول

فــدونكها تحــوي فوائــد جمــة ... مــن العلــم قــد لا يحتويهــا المطــول
فيــارب عفــوا منــك عمــا اجترحتــه ... من الذنب عن علم وما كنت أجهــل
فــإني علــى نفســي مســيء ومســرف ... وظهــري بــأوزار الخطيئــات مثقــل
فهب لي ذنوبي واعف عنهــا تفضــلاً ... علــى فمــن شــأن الكــريم التفضــل
وأحسن ما يزهو بــه الختم حمــد مــن ... بأسمائــه الحســنى لــه نتوســل
وأزكى صــلاة والســلام علــى الــذي ... بــه تم عقــد الأنبيــاء وكملــوا
محمــد المختــار مــا هــل عــارض ... علــى بلــد قفــر ومــا أخضــر ممحــل
كذا الآل والأصحاب مــا قــال قائــل ... نفيــتم صــفات الله فــالله أكمــل

القصيدة البائية في الحث على مكارم الأخلاق

للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني

أمــا آن عمــا أنــت فيــه متــاب ... وهــل لــك مــن بعــد البعــاد إيــاب
تقضت بــك الأعمــار في غــير طاعــة ... فكــل بنــاء قــد بنيــت خــراب
إذا لم يكــن لله فعلــك خالصــا ... ســوى عمــل ترضــاه وهــو ســراب
فللعمــل الإخــلاص شــرط إذا أتــى ... وقــد وافقتــه ســنة وكتــاب
وقد صين عن كــل ابتــداع وكيــف ذا ... وقــد طبــق الآفــاق منــه عبــاب
طغى الماء من مجرى ابتداع على الورى ... ولم يــنج منــه مركــب وركــاب
وطوفــان نــوح كــان في الفلــك أهلــه ... فنجــاهم والغــارقون تبــاب
وأنــى لنــا فلــك ينجــي وليتــه ... يطــير بنــا عمــا نــراه غــراب
وأيــن إلى أيــن المطــار وكــل مــا ... علــى ظهرهــا يأتيــك منــه عجــاب
نســائل مــن دار الأراضــي ســياحة ... عســى بلــدة فيهــا هــدى وصــواب
فيخــبر كــل عــن قبــائح مــا يــرى ... ولــيس لأهليهــا يكــون متــاب
لأنهــم عــدوا قبــائح فعلــهم ... محاســن يرجــى عنــدهن ثــواب

كقوم عراة في ذري مصر ما ترى على عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم في مصرهم فضلاءهم دعاؤهم فيما يرون مجاب
وفيها وفيها كل ما لا يعده لسان ولا يدنو إليه خطاب
وفي كل مصر مثل مصر وإنما لكل مسمى، والجميع ذئاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت لها ذئاب وما عنها لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق فلم يبق منه جثة واهاب
وليس اغتراب الدين إلا كما ترى فها بعد هذا الاغتراب إياب
فيا غربة هل ترتجي منك أوبة فيجبر من هذى العباد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه سوى عزلة فيها الجليس كتاب
كتاب حوى كل العلوم وكل ما حواه من العلم الشريف صواب
فإن رمت تاريخًا رأيت عجائبًا ترى آدما إذا كان وهو تراب
فتنظر هابيلا قتيل شقيقه يواريه لما أن أراه غراب
وتنظر نوحًا وهو في الفلك إذ طغى على الأرض ماء للسحاب عباب
وإن شئت كل الأنبياء وقومهم وما قال كل منهم وأجابوا
ترى كل من تهوى من القوم مؤمنًا وأكثرهم قد كذبوه وخابوا
وجنات عدن حورها ونعيمها ونار بها للمسرفين عذاب
فتلك لأصحاب التقي ثم هذه لكي شقي قد حواه عقاب
وأن ترد الوعظ الذي إن عقلته فإن دموع العين عنه جواب
تجده وما تهواه من كل مشرب فللروح منه مطعم وشراب
وإن رمت أبراز الأدلة في الذي تريد فما تدعو إليه تجاب
تدل على التوحيد فيه قواطع بها قطعت للملحدين رقاب

وفيه الدوا من كل داء فثق به ... فوالله ما عنه ينوب كتاب

وما مطلب إلا وفيه دليله ... وليس عليه للذكي حجاب

وفي رقية الصحب اللديغ قضية ... وقررها المختار حين أصابوا

ولكن سكان البسيطة أصبحوا ... كأنهم عما حواه غضاب

فلا يطلبون الحق منه وإنما ... يقولون من يتلوه فهو مثاب

فإن جاءهم فيه الدليل موافقًا ... لما كان للآبا إليه ذهاب

رضوه وإلا قيل هذا مؤول ... ويركب للتأويل فيه صعاب

تراه أسيرًا كل حبر يقوده ... إلى مذهب قد قررته صحاب

أتعرض ياذا عن رياض أريضة ... وتعتاض جهلاً بالرياض هضاب

يريك صراط مستقيمًا وغيره ... مفاوز جهل كلها وشعاب

يزيد على مر الجديدين جدة ... فألفاظه مهما تلوت عذاب

وآياته في كل حين طرية ... وتبلغ أقصى العمر وهي كعاب

ففيه هدى للعالمين ورحمة ... وفيه علوم جمة وثواب

فكل كلام غيره القشر لاسوى ... وذا كله عند اللبيب لباب

دعوا كل قول غيره وسوى الذي ... أتى عن رسول الله فهو صواب

وعضوا عليه بالنواجذ واصبروا ... عليه ولو لم يبق في الفم ناب

تروا كل ما ترجون من كل مطلب ... إذا كان فيكم همة وطلاب

أطيلوا على السبع الطوال وقوفكم ... تدر عليكم بالعلوم سحاب

وكم من ألوف بالمئين فكن بها ... ألوفًا تجد ما ضاق عنه حساب

وفي طي أثناء المثاني نفائس ... يطيب بها نشر ويفتح باب

وكم من فصول في المفصل قد حوت ... أصولاً إليها للذكي إياب

وما كان في عصر الرسول وصحبه ... سواه لهدى العالمين كتاب

تلا «فصلت» لما أتاه مجادل فأبلس حتى لا يكون جواب
أقر بأن القول فيه طلاوة ويعلو ولا يعلو عليه خطاب
وأدبر عنه هائمًا في ضلالة يريد حرادًا في الأنام يعاب
وقال وصى المصطفى ليس عندنا سواه وإلا ما حواه قراب
وإلا الذي أعطاه فهمًا إلهه بآياته فاسأل عساك تجاب
فما الفهم إلا من عطاياه لا سوى بل الخير كل الخير منه يصاب
سليمان قد أعطاه فهمًا فناده يجبك سريعًا ما عليه حجاب
وسل منه توفيقًا ولطفًا ورحمة فتلك إلى حسن الختام مآب

قال محمد تقي الدين: ونختم هذه الجيوش الشعرية بقصيدتي التي سميتها الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة. وقد صدرتها بالغزل اقتداء بشعراء العرب وخصوصًا الصحابة كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما وهذه هي القصيدة:

لقد طال ليلي والجوى مالىء صدري وبرح بي شوق إلى ربة الخدر
أقضي نهاري دائم الفكر والأسى وليلي تسهاد إلى مطلع الفجر
وأكتم أسراري حذارًا من العدا ومهما أبح فالحب أفقدني صبري
تذكرت أيام الوصال فكان من تذكرها قلبي يطير من الصدر
فياويح قلبي ما يلاقي من الهوى ومن فرط آلام الصبابة والهجر
وعاذلة جاءت بلوم كأنه نعاب غراب للفؤاد غدا يبري
ولست بسال لو أطلت ملامتي فكفي عن الإسفاف والمنطق الهجر
وكيف سلوى بعد ما شاب مفرقي وأنفقت في حبي لها زهرة العمر
ألم تعلمي أن الملام وإن غدا عديمًا من الجدوى فبالحب قد يغري
وطفت بلاد الله شرقًا مغربًا على قدمي طورًا وطورًا على مهر
وأنضيت بعرانًا وحلقت في السما على جائبات الجو كالنجم إذ يسري

وطورا على فلك عظيم كأنه ... ثبير يروع الحوت في لجة البحر
حليف اغتراب في تواعد رحلة ... وإن كنت في أهل كثير ذوي وفر
(وما غربة الإنسان من شقة النوى ... ولكنها) في الدين والخلق والبر
إلى الله أشكو غربة الدين والهدى ... وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر
وأرعن غمر جاء يوعد مبرقًا ... يحرق أنيابًا من الغيظ والكبر
فقلت له شؤشؤ لك الويل إنما ... وعيدك تطنان الذباب على النهر
وليس يضير النهر صوت ذبابة ... ومهما دنت تردي وتهوى إلى القعر
أتوعد سنات الرسول بمحوها ... تعرضت للتدمير ويلك والتبر
ومن يقل سنات الرسول فإنه ... يعذب في الدنيا وفي فتنة القبر
ويسأله فيه نكير ومنكر ... وما من جواب عنده غير لا أدري
وذي سنة الجبار في كل من غدا ... يحارب دين الله في السر والجهر
ألم تدر أن الله ناصر دينه ... وموقع أهل البغي في دارة الخسر
وكم قد سعى ساع لإطفاء نوره ... بكيد فرد الله كيده في النحر
وتنصر إشراكًا وفسقًا وبدعة ... وناصر هذي خاسرًا أبد الدهر
دعا المصطفى قدمًا عليه بلعنة ... ومن يلعن المختار فهو إلى شر
وتلعنه الأملاك من فوق سبعة ... كذلك أهل الأرض في السهل والوعر
تحدد للوعاظ ما يدرسونه ... وأنت يمين الله أجهل من حمر
(لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل ذي عسر)
تدس جواسيسا لئاما بوعظهم ... لتلفيق أخبار من المين والمكر
لقد فقت الاستعمار في اللؤم والخنا ... وفي الكيد والبهتان والختل والختر
تحارب من يدعو لسنة أحمد ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فيا ناطح الطود المتين بهامة ... مدورة جوفًا حذار من الكسر

ولـيـس يحيـق المكـر إلا بأهلـه وحـافر بئـر الغـدر يسـقط في البئـر

وكـم حـافر لحـدا ليـدفن غـيره علـى نفسـه قـد جـر في ذلـك الحفـر

وكـم مشـرك طـاغ تـردى بشـركه وسـادن قـبر بـاء بـالخزي والخسـر

وكـم رائـش سـهما ليصـطاد غـيره أصيب بـذاك السـهم في ثغـرة النحـر

وهـل أنـت يـا مغـرور إلا معبـد حقـير كفـأر صـال في غيبـة الهـر

وقـبرة أضـحى لهـا الجـو خاليـا من النسر والعقبان والبازي والصـقر

فـلا تفرحـي يومًـا سـيأتيك صـائد ويسقيك كأس الحتف كالصاب والصبر

(فإن كنـت لا تـدري فتلـك مصيبة وإن كنت تدري) زدت وزرًا على وزر

وإنـك لم يفخـر عليـك كفـاخر ضعيف ولم يغلبك) كالساقط القـدر

(فيـا عجبـا حتـى كليـب تسـبني كـأن أباهـا) مـن لـؤى ومـن فهـر

أتغـتر بالإمهـال تحسـب أنـه عـدمتك إهمـال وذا ديـدن الغمـر

ومـا نحـن إلا خـادمون لسـنة أتت عن نـبي الله ذي الفـتح والنصـر

وخـادم سـنات الرسـول حياتـه كخادمها من بعـد مـا صـار في القبر

ومـا غـاب إلا شخصـه عـن عيوننـا وأنـواره تبقـى إلى الحشـر والنشـر

فيا مبغضـي هـدى النبي ألا أبشـروا بخزي علـى خـزي وقهـر علـى قهـر

سـلكتم سـبيلاً قـد قفاهـا أمـامكم أبـو جهـل المقصـوم في ملتقـى بـدر

وعاقبـة المتبـوع حـتم لتـابع كمـا لـزم الأحـراق للقـابض الجمـر

فـإن أنـت كـذبتم بوعيـده فكم كـذبت مـن قـبلكم أمـم الكفـر

فصـب علـيهم ربهـم سـوط نقمـة فصـاروا أحاديـث المقـيمين والسـفر

(فيا رب هل إلا بـك النصـر يرتجى عليهم) إليك الأمر في العسر واليسر

قلـوا سـنة المختـار يبغـون محوهـا وكادوا لها فاجعل لهم كيـدهم يفـري

هم استضعفونا اليوم مـن أجـل أننـا قليل وقـد يعلـو القليـل علـى الكثر

ولاسـيما إن كـان لله قائمًـا ... وأعـداؤه للبغـي مـن جهلـها تجـري

وإدراك إحـدى الحسـنيين محقـق ... لمن يقتدي بالمصطفى من ذوي الحجر

ومـن ظـن أن الله مخلـف وعـده ... وخـاذل أنصـار الـنبي بـذا العصـر

فـذاك غلـيظ الطبـع أرعـن جاهـل ... عريض القفا بين الورى مظلم الفكـر

تكفـل بالنصـر العلـي لحزبـه ... حيـاتهم هـذي وفي موقـف الحشـر

ففـي غـافر قـد جـاء ذالـك واضـحًا ... ولكنـه يخفـى علـى الفـدم والغمـر

سـلام علـى أنصـار سـنة أحمـد ... فهـم أوليـاء الله في كـل مـا دهـر

إلـيهم أجـوب الـبر والبحـر قاصـدًا ... فـرؤيتهم تشـفي السـقيم مـن الضـر

هم حفظوا الـدين الحنيـف وناضـلوا ... عن الحق بالبرهان والبيض والسـمر

هـم خلفـوا المختـار في نشـر سـنة ... بفعـل وأقـوال تـلألأ كالـدر

هـم جـردو التوحيـد مـن كـل نزعـة ... من الشرك والإلحـاد والزيـغ والنكـر

فـلا قبـة تـبني علـى قـبر ميـت ... ولم يعبـدوا ميتًـا بـذبح ولا نـذر

ولا بطـواف أو بتقبيـل تربـة ... فـذلك فعـل المشـركين ذوي الكفـر

ولا رحلـوا يومًـا لغـير ثلاثـة ... مسـاجد خصـت بالفضـائل والأجـر

ولم يسـتغيثوا في الشـدائد كلـها ... بغير إله النـاس ذي الخلـق والأمـري

ولم يصـفوا الـرحمن إلا بمـا أتـى ... بـنص كتـاب الله والسـنن الزهـر

يقـرون آيـات الصـفات جميعهـا ... كمـا فعـل المختـار مـع صـحبه الغـر

فلـو كـان في التأويـل خـير لبـادروا ... لـه فهـم الفرسـان في الـنظم والنثـر

(أولئـك آبـائي فجـئني بمثلـهم ... إذا مـا) اجتمعنـا في المجـالس للفخـر

وقـد أكمـل الـرحمن مـن قبـل دينـه ... فلـم يبـق مـن زيـد لزيـد ولا عمـرو

بمائـدة قـد جـاء بـالنص ختمـه ... وإتمـام إنعـام يجـل عـن الحصـر

وكـم زائـد في الـدين أصـبح ناقصًـا ... يبـدل ديـن الله بالحـدس والحـرز

ومن ظن تقليد الأئمة منجيًا فأفتى بتقليد فيا له من غر
كمنتحل عذرًا ليغفر ذنبه أضاف له جرمًا تجدد بالعذر
ألا إنما التقليد جهل وظلمة وطالبه خلو من العلم والخبر
كطالب ورد بعد ما شفه الظما جرى خلف آل لاح في مهمة قفر
فإن قمت بالإفتاء أو كنت قاضيًا فإياك والتقليد فهو الذي يزري
وجرد سيوفًا من براهين قد سمت عن الحدس والتخمين والسخف والهتر
وطرفك سرح في الكتاب فإنه رياض حوت ما تشتهيه من الزهر
ومن بعده فاعلق بسنة أحمد فأنوارها تسمو على الشمس والبدر
ولا تحكمن بالرأي إلا ضرورة كما حلت الميتات أكلا لمضطر
ومهما بدا أن القضاء على خطا أقيم فبادر للرجوع على الفور
ومن يقض بالتقليد فهو على شفا كعشوا غدت في كافر حالك تسري
ومن يفت بالتقليد فهو قد افترى وفي النحل نص جاء في غاية الزجر
لعمرك ما التقليد للجهل شافيًا وأما نصوص الوحي فهي التي تبري
وصل وسلم يا إلهي على النبي صلاة تدوم الدهر طيبة النشر
فدونكها بكرًا عروبًا خريدة مهفهفة غيدا عروسا من الشعر
يضيء ظلام الليل نور جمالها وليس لها إلا القراءة من مهر
قصدت بها نصرا لسنة أحمد وناصرها لاشك يظفر بالنصر
وعدتها تسعون من بعد خمسة وأختمها بالحمد لله والشكر

قال محمد تقي الدين: تم بحمد الله وحسن عونه القسم الثالث وهو الأخير من كتاب « سبيل الرشاد » وهذه نعمة عظيمة كنت أتمناها على الله تعالى منذ عشرات السنين وكان الفراغ منه يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف من هجرة النبي الأكرم، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم وبمحبتي واتباعي

لنبيك الكريم وإن كنت مقصرًا أن تعينني على ما بقي وهو وضع فهرست واف للقسم الثاني وأن تنفعني به في الدنيا والآخرة وتنفع به خلقًا كثيرًا وكان الكاتب لختام هذا الجزء رضا الله بن محمد إدريس المباركيوري رزقه الله العلم النافع والعمل الصالح وجعله من الأئمة الداعين إلى الله على بصيرة وهداه وهدى على يديه خلقًا كثيرًا وقرأ على هذا الكتاب وتولى تصحيحه حسب ما أمرته ابني البرخشي عبد الغني بوزكري وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين وأطال بقاءه وختم له بالسعادة والغفران وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس



فهرس الكتاب